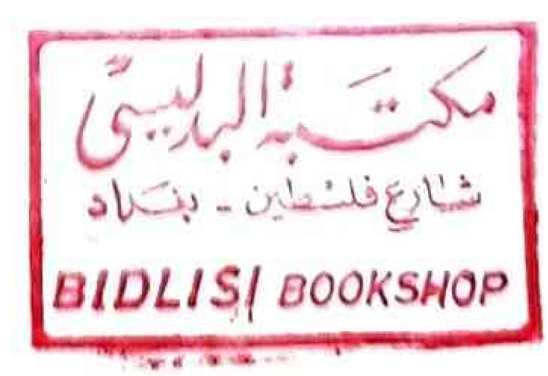


فضل النقيب

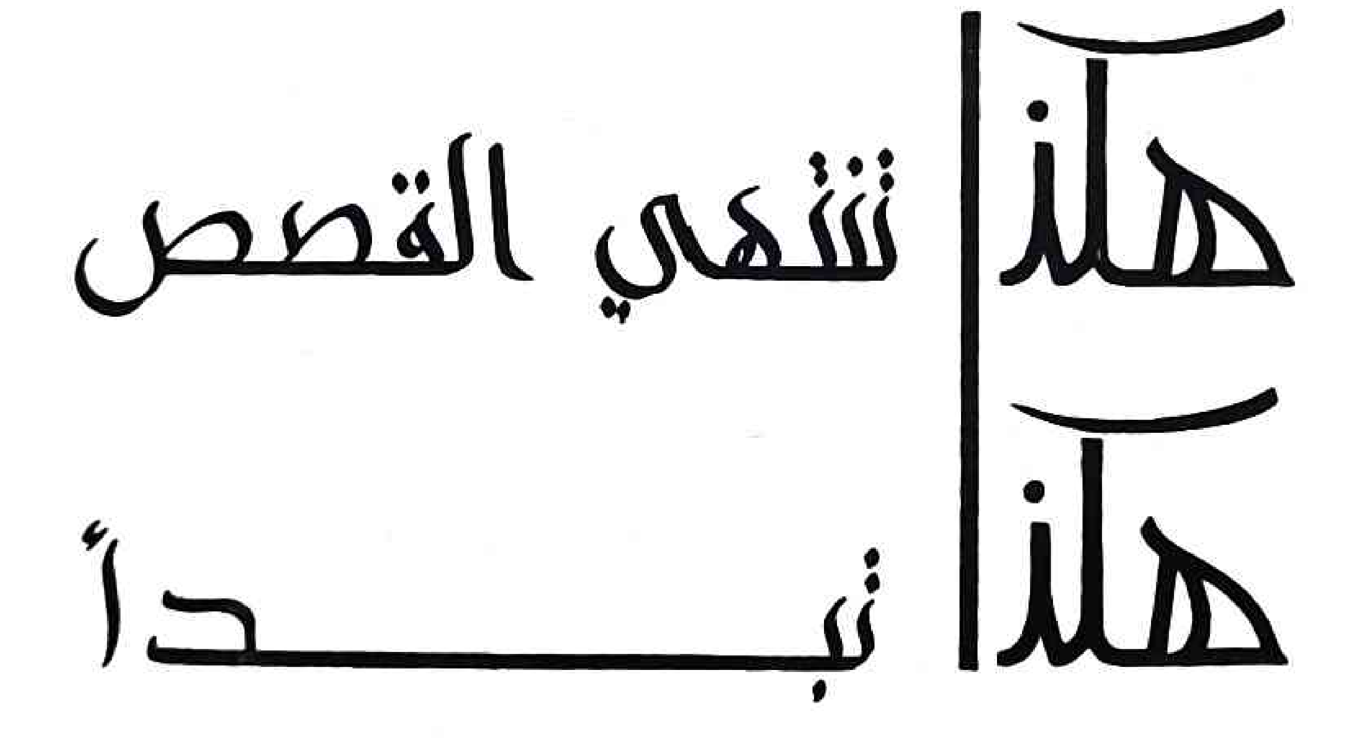


انطباعات شخصية عن حياة غسان كنفاني و باسل الكبيسي

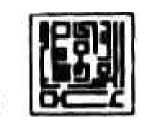
هكذا تنتهي القصص
هكذا نبـــــدأ



فضل النقيب



إنطباعات شخصية عن حياة غسان كنفاني و باسل الكبيسي



مؤسسة الأبحاث العربية

* فضــل النقيب : هكذا تنتهــي القصص .. هكذا تبدأ .

* الطبعة العربية الأولى ، ١٩٨٣ .

* الناشر : مؤسسة الأبحاث العربية ، ش.م.م.

ص.ب ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شــوران)

بيروت ـ لبنان

هاتف ٨٠٤٢٥٧ ـ تلــكس ٢٠٦٣٩

دِلتا ـ لبنان

« . . . والمسألة مسألة وقت ليس غير ، كذلك تبدأ القصص وكذلك تنتهي »

غسان كنفاني

« طوال حياتي في العمل السياسي وأنـا أتحـرك بدافع الايمان . اما الآن فلقد تعلمتُ الحقد »

باسل الكبيسي

هذا الكتاب

سيرة حياة ، ام سـيرة ادبية ـ فكرية ـ سياسية ، ام مزيج منها ؟

كتاب فضل النقيب « هكذا تنتهي القصص ، هكذا تبدأ » ، هو ثمرة معايشة المؤلف الطويلة لرجلين عاشـا حياتهما حتى لحظتها الأخيرة بقلق وبحث .

غسان كنفاني في بحثه المضني عن العلاقة بين كاتب القصـة وابطالهـا ، ذهـب الى النهـاية ، كتـب القصـة الفلسطينية ثم انكتب بها ، مات كما يموت ابطاله ، فاجأ الموت وغاب .

وباسل الكبيسي ، الذي يمثل نموذجاً فريداً للمناضل

القومي ، خذ له الواقع فذهب الى موته ، الى البحث عن صياغة واقع جديد .

كنفاني والكبيسي هما شاهدان كبيران على مرحلة وشهيدان للمرحلة .

في هذه الصفحات يحاول النقيب أن يستجمع صورة رجلين في نص واحد . يكتب عنهما فإذا به وكأنه يكتب بهما سطوراً عن اجيال من النخبة العربية وهي تندفع الى خياراتها الحاسمة .

نستعيد مع اجواء « رابطة الأدب والحياة » ، لحظة بدايات البحث عن التعبير القصصي في الوسط الفلسطيني المنفي ، حين كانت القصة غائبة ، كما نستعيد في توتر شخصية غسان كنفاني وتعددها وهج تلك النار التي احرقت الجميع ، وما تزال اسئلتها تستدعي اسئلة جديدة . اما مع باسل الكبيسي ، فنحن نعيش اجواء النضال القومي في الستينات ، اجواء بدايات الخيبة

ومحاولات اعادة التأسيس التي بدأت مع هزيمة حزيران .

فضل النقيب يقترب من صديقيه ليكتب مقاطع من سيرتهما . السيرة هنا ، على الرغم من حنانها ومحبتها ، تحاول أن تكشف التناقضات والسقطات . كأنه المؤلف يستعير في صديقيه وجوهه المختلفة ، أو كأنه في جرأته يقترب من لحظة الكتابة ، تلك اللحظة التي تحوّل الاشياء ، لا تكتفي بوصفها بل تدخلها في منطق جديد . نخرج من قراءة الكتاب بصورة جديدة لكنفاني . ما يزال مؤلف « رجال في الشمس » اليفاً ، كما عرفناه في كتبه ومقالاته ، لكنه هنا يأخذ شكله التكويني ، نذهب معه في رحلة اكتشافه لنفسه ولموته ، نكتشف وجهه الآخر في باسل الكبيسي ، ومع موتهما الفاجع ، نستعيد لحظات هذه المآسي التي ابتدأت عام ١٩٦٧ وتكاد لاتنتهي .

السيرة، ما تزال نادرة في ادبنا العربي الحديث، وما يقدمه هذا الكتاب الصغير ، هو في الواقع احتمالاته ، احتمالات أن لا نسمح للتجربة بأن تضيع ، أن نكتبها كي نشكل منها اطاراً لفهم لحظتنا الحاضرة ، ولاكتشاف اشكاليات البحث والقلق والموت ، اشكاليات محاولة الخروج الى الكتابة والممارسة .

الناشر

- ١ -

لم أُعجب بغسان كنفاني عندما تعرفتُ اليه أول مرة . ولقد احتفظتُ بذلك الشعور تجاهه لمدةٍ غير قصيرة لأن اصدقائي الذين تعرفوا اليه معي لم يعجبوا به أيضاً .

كنتُ واصدقائي في المرحلة الأخيرة من الدراسة الثانوية ، ننتسبُ الى الفرع العلمي ليؤهلنا لدراسة الهندسة أو الطب في الجامعة ، ونعيشُ على الإعجاب المسحور بالأدب . كنا نعتقدُ أن أهم ما في الحياة هو الكتابة . وكنا لا نرى أهمية للمستقبل إلا اذا اصبحنا كتّاباً ، و بانتظار ذلك المستقبَل كنا غير قادرين على الثقة بأي انسانٍ لا يهتمُ بالأدب .

كنا نقرأ كل ما تصل إليه أيدينا ، وكنا نعجبُ تقريباً بكل ما نقرأه ، فلقد كان العالم جديداً ومكتباته حافلة بالكتب الجيدة . واحياناً كان ما نقرأه يثيرنا لدرجةٍ تدفعنا للكتابة ، لنكتشف بعد سطورٍ ان ما كتبناه يختلفُ كثيراً عن الذي نريدُ ان نكتبه ، فنتركه لنقرأ أكثر . ثم نظمنا حياة القراءة وتأجيل الكتابة برابطة اطلقنا عليها اسم رابطة « الأدب والحياة » . كنا في الرابطة قد سمعنا عن غسان كنفاني . وكنا نريدُ أن نتعرف اليه لأننا احببنا لوحاته الملونة التي كانت تعلقُ على جدران مدارس الفلسطينيين في دمشق ، ولافتاته التي كان يحملها الطلبة في مظاهرات أيام وعد بلفور والتقسيم و١٥ أيار السنوية.وعندما التقينا به في دار مجلة «الرأي» بادرته فوراً بسؤالٍ عن رسوماته ولوحاته الملونة ، فتجنب الإجابة المباشرة على سؤالي الذي اعتقدتُ انه كان مهماً ، واكتفى بالقول انه يهتمُ بالكتابة أكثر من الرسم . ولما سألته لماذا

يفعل ذلك ؟ قال لأنه يستطيعُ ان يعبر عما يريده بالكتابة أكثر من الرسم .

لم تعجبني اجابته كما انها لم تعجب اصدقائي ، فلقد كنا في تلك الأيام لا نستعملُ ذلك الاسلوب المباشر في الحديث عن الأشياء المهمة . ومع هذا فبعد لقائين او ثلاثة بغسان دعوناه للانتساب الى الرابطة ، فوافق بطريقة تخلو من أي حماسة ، وفي أكثر أحاديثه معنا كان يتحمسُ فقط عندما يكون مختلفاً معنا . وفي اجتماعاتِ الرابطة ، والتي كان فيها دائم الحماسة ، ادركنا انه مختلف عنا ، وانه لن يصبح واحداً منا .

كنا نشعرُ اننا موضوعيون وانه ذاتي . ففي أي نقاش بيننا وبينه كانت آراؤنا تصدر عن مفهومات قرأناها وناقشناها واقتنعنا بها ، وكانت اراؤه تصدر عن احساسه الذاتي والذي يبدو في اكثر الحالات لا علاقة له بالقضايا

المطروحة . وعندما كنا نقرأ كنا نعجبُ بكل الأشياء الجميلة التي نمرُ بها ، كان ينتقي دوماً ما يُعجب به وكأنه من الاشياء التي تفيده شخصياً . وكنا لا نتكلم عن الروائيين الكبار الا بخشوعٍ وتقديس ، وكان يتحدثُ عنهم كما يتحدثُ عن أي إنسانٍ آخر . كان يتكلم بطريقة تؤلم طموحنا .

ثم اخذنا نشعرُ اننا موضوعيون وأنه مغرور . فلقد كان الواحد منا لا يتكلم عن قطعةٍ كتبها إلا اذا قلل من شأنها واعتذر عنها ، وكان هو لا يرتاحُ إلا اذا مدح ما يكتبه وسخّر كل الأساليب الممكنة ليدافع عنه . وكنا نقرأ أكثر منه ، كنا نصرف معظم اوقاتنا في القراءة ، وكان يصرف وقته في قضايا لا حصر لها . ولكنه كان يكتب بشكلٍ يومي ، فاذا كانت قضية النشر بالنسبة لنا خاصة بالمستقبل البعيد المغلف بالأحلام ، فلقد كانت بالنسبة له تخصُ ما يكتبه اليوم لينشره غداً . واذا لم يستطع نشره في

مجلة ما فسيحاول نشره في مجلة اخرى . كان يعيش بلا حلم .

وكان أكثر من ذلك . كان يريد ان يغيرّ من وضع الرابطة ويقودها في طريق النشاط العام . لقد اوجدنا الرابطة أصلاً كشيءٍ خاصٍ بنا . فلقد كنا اعضاء نَشِطين في تنظيات حزبية وطلابية ، وكنا نعيش في تلك الأجواء شكوكاً وهموماً لا نستطيع حسمها ، وفي اجتماعات الرابطة ، كنا نقرأ ما كتبناه لنعطي تلك الشكوك والهموم ابعاداً خاصة تساعدنا على التعايش معها . وكان غسان يصر على ضرورة عقد الندوات العامة وقراءة ما نكتبه للناس . كان لا يرى أي قيمة للاجتماعات الخاصة . كان يريد ان يهدم ذلك البيت الخاص بنا ويضعنا مع همومنا وشكوكنا في الشارع .

وفي أحيانٍ كثيرة كانت الامور تتجمع بشكلٍ نرى فيه أن الفرق بيننا وبينه يتلخصُ في انه فشل في فهم معنى

الرابطة ، فشل في فهم معنى الأدب . وكان مستحيلاً ان نحسم هذا الخلاف مع غسان فلقد كان قادراً دوماً على مفاجأتنا . في امسياتٍ كثيرة كان يحتدم نقاشنا معه حتى الساعاتِ المبكرة من الصباح ، عندها كنا نترك النقاش ونلوذُ بالحديث عن أجواء « البؤساء » و« الأخوة كرامازوف » فتذوب نفوسنا جميعاً بأجواء الأدب العظيم ونعتقدُ اننا اجتذبناه اخيراً الى عالمنا ، لنفاجأ به في اليوم التالي وقد عاد الى عالمه الذي لا نثقُ به ولا نحبّ أن نثق به .

- ٢ -

مع مرور السنوات اتضح لي ان شعورنا تجاه غسان في الأيام الأولى لمعرفتنا به لم يكن مصادفةً أو ناتجاً عن سوء فهم ، كما أنه لم يكن من نسج عاطفة السن المبكرة . لقد كان شعوراً حقيقياً ، فلقد كنا مختلفين عنه ونعيشُ حياة مغايرةً لحياته . كنا هواةً وكان محترفاً . كنا قراءً وكان كاتباً .

قبل مرور تلك السنوات تغير شعورنا تجاه غسان.فبعد اسابيع من لقاآتنا اليومية به ، أصبحت الأمور التي لا تعجبنا فيه هي الأشياء التي تشغل الكثير من أوقاتنا ، قبل ان نتعرف إليه كنا دوماً نتحدث عن الأوضاع المثيرة التي نقرأها في الروايات المختلفة ، ووجدنا انفسنا بعد

التعـرف اليه ، ودون ان ندري ، نتحـدث دومــاً عن اوضاع غسان كنفاني .

كانت حياته غير المثقلة باحلام المستقبـل البعيد حياة حرة فيها اوقات مثيرة ، فهو لا يحب القصص الناقصة ، ولا يترك الأمـور مؤجلـة . فعندمـا يتعـرف الى شخص جديد ، كان يكوّن عنه وبسرعة فكرة كاملة ، ويتصرف معه على اساسها ، فيضطر ذلك الشخص ان يعطي كل ما عنده وبسرعة مماثلة . وعندما كان يدخلُ ندوةً عامـة كان يحاولُ أن يربح النقاش الدائر فيها ، واذا لم يستطع ذلك كانت كلماته الساخرة قادرة دوماً على ان تلقي ظلالاً من الشك حول النقاش المحسوم لغير صالحه ، وعندما كان يتعرفُ على فتاة كان يحبها ، واذا لم يستطع ذلك ، كان قادراً على ان يحب شيئاً ما يخصُ علاقته بهـا . وفي مراتٍ كثيرة كنا نتضايق من طريقتـه في تقييم النـاس ، وننفـرُ من اسلوبـه في النقـاش ، ونمـلُ من قصصـه

العاطفية ، ولكن ذلك كان مثيراً أيضـاً ، لانـه شعـورٌ يختلفُ عن شعور الضيق والنفور والملل الذي تصادفه في الحياة اليومية . انه كالشعور الذي تصادفه وأنـت تقـرأ صفحاتٍ باهتة في روايةٍ جيدة ، والذي يدفعك لأن تقرأ بسرعـة لتصـل الى الصفحـات المثـيرة ، وفي تلك الصفحات كنا دوماً نعيش مع غسان إثارةً جديدة . كان يعيشُ بالغريزة ، تلك الغريزة النادرة والتي تحتفلُ بالحياة في كل لحظة ، فتحوّلُ اليوم العادي الى حَدث مهم .

كان غسان كنفاني يعتقدُ انه يستطيع ان يعبرَ عما يريد بالكتابة أكثر من الرسم ، وكنا نحبُ لوحاته الملونة أكثر من قصصه القصيرة . في تلك اللوحـات كانـت الوانـه تعكسُ شيئاً ما يتحركُ في نفوسنا ، بينما كانـت قصصـه خالية من أي حركة . كنا نقرأ له قصة جديدة فلا يشعرُ الواحد منا تجاهها إلا ما شعر تجاه القصص التي ابتدأ هو بكتابتها وتركها غير كاملة عندما أخذت صفحاتها تلسعُ

وجهه بنظراتٍ بدائية لا تحركُ الا خيبة الأمل . كان مايثير دهشتنا يومها ان غسان لا يترك تلك القصص ، بل ينهيها وينشرها .

لقد كانت الكتابة ولأي واحدٍ منا هي الهدف الوحيد ، ولكنها كانت عمليّة مُضنية صعبة ، فأنت عندما تكون دون العشرين من عمرك وعلى اعتاب الرجولة ، وتعتقدُ انك لن تصل الى الرجولة إلا اذا أصبحت كاتباً ، تكون روائع الآداب العالمية قد حفرت في نفسك بئراً للهب ، وأوهمتك أنه ما عليك إلا ان تغرف من ذلك اللهب لتكتب روائع اخرى ، وأنت تبحث بشكلٍ يومي عن ذلك السر الخفي الذي يجعلك لا تغرف بما فيه الكفاية ، ويجعلك تؤجل عملية انتاج الروائع يوماً بعد الآخر . وعندما لا تستطيع ان تبقى على اعتاب الرجولة أكثر مما فعلتْ ، وتجلس مع أوراقك مرة كافية ، لتكتب عن ذلك الشيء الذي يعيشُ في اعماقك

ويصرُّ على الخروج إلى الورق ، ذلك الشيء الذي تعتقدُ انك الوحيد الذي تملكه ، وانك الوحيد الذي يستطيع أن يعبر عنه ، فتصر على كتابته ، واعادة كتابته ، وتصرُّ على البقاء مع اوراقك مهما كانت المدة اللازمة ، وأخيراً عندما تكتشف ان الذي كتبته هو ابعد ما يكون عن الذي تريدُ ان تكتبه ، فانت عندها لا تشعرُ بفراغٍ روحي مدمر وحسب ، بل بألمٍ جسديٍ أيضاً .

اذا كنت دون العشرين من عمرك في اواخر الخمسينات وتصرُ على كتابة القصة الفلسطينية ، فعليكَ أن تكون التلميذ والمعلم والمدرسة في آنٍ واحد ، فكل الذي قرأته وكل الذي اختزنته في نفسك لا يقدم لك ارشاداً واحداً يساعدك على اخراج ما في اعماقك الى الورق . وقبل ان يتمنى لك المخلصون ـ وهم دوماً موجودن ـ حظاً سعيداً ، عليهم ان يتمنوا لك أي حظ ، فمن الممكن ان لا تصادف حتى الحظ السيء .

قد يكون ذلك مصير معظم الذين يحاولون كتابة القصة في سن ٍ مبكرة في الخمسينات أو غير الخمسينات ، فلسطينيين أو غير فلسطينيين ، ولكننا لم نكن نعرف ذلك ، لأننا لم نتوقف لنتساءل : لماذا نريد ان نكون كتاباً للقصة ؟ فأنت لا تتوقف قبل العشرين من عمرك لتسأل نفسك أسئلة بديهية . أنتَ تعرف ماذا تريد ، وتعرف انك لا تريد أي شيء آخر . انت تتوقف قلقاً على ذلك اللهب الذي اختزنته في نفسك ، وتخشى عليه من الانطفاء ، وفي ايام قليلة تعرف انه لا ينطفىء وأنه يخبو احياناً ثم يعود ليتوهج من جديد ، فتحبُ تلك المعرفة ، وترتاح اليها ، وتعيش معها ، ثم تكتشف انك لا تعرف ماذا تفعل بها ، فتعود الى الشيء الوحيد الذي تعرفه ، تعود الى الكتابة والقلق على الكتابة وتخشى ان يكون لهب القراءة هو أصلاً غير لهب الكتابة ، فتتوقف عن القراءة ، وتكره تلك المعرفة التي احببتها قبل ايام

فتحاول جاهداً ان تتخلص منها ، وعندهـا يأتـي ذلك الوقت المعين من كل عام ، الذي تتركُ فيه القلـق وكل شيء آخـر وتذهـب الى المكان الـوحيد الـذي تستـطيع الذهـاب إليه ، وفي المظاهـرات السياسية يمتـزجُ لهـب القراءة بلهب الكتابة ، ويضيء في نفسك أعماقاً جديدة لم تكن قد اكتشفتهـا بعـد ، وفي الأيام التـي تلي ذلك الوقت المعين من كل عام تقتنعُ انك تعيشُ المعاناة التـي قرأت عنها أكثر من مرة في حياة الكتاب الكبار ، فتشعر بفرحٍ عام شامل وأنـت ترى حياتـك أخـيراً على صلـة بالمستقبل البعيد الذي تريد ، فتتـأكد انـه سيأتـي اليوم الذي تطّوع فيه اللغة ، وتوجد فيه الاسلوب ، وتخرج ما في اعماقك على الورق ، وتعود الى فلسطين .

كان من الممكن لتلك الحياة والتي اطلقنا عليها اسم رابطـة « الادب والحياة » ان تستمـر لسنـواتٍ طوال ، فحرارة اواخر الخمسينات كانت قادرة على ان تلوّن قلقنا

كل عام بلـونٍ جديد ، ولكنهـا لـم تستمـر لأن غســان اضطرنـا ان نتـوقف ونتسـاءل لماذا نريدُ ان نكون كتابـاً للقصة ؟.

لقد حصلنا على الإجابة في دمشق . فدمشق تعطيك دوماً إجابةً عن السوالِ الذي تطرحه في حياتك . أحياناً تعطيكَ دمشق اجابةً حقيقية ، واحياناً تعطيك اجابةً غير حقيقية . ولـكن اذا كنـت منحـازاً للمدينـة ، فانــت تستطيع ان تعرق متى يأتـي وقـت اليقـين في دمشـق . وهـكذا أدركنـا في ذلك الخـريف ، لماذا يكتـبُ غسـان بشكلٍ يومي ، ولماذا ننتظـرُ نحـنُ المستقبـل لنكتـب . واقتنعنا بشكلٍ اقوى من وعينا ، انه لا يحتاج لانتظـار المستقبل لأنه سافر الى المستقبـل ، وعـاش فيه ، وعـاد منه ، وهو يحدثنا عنه يوماً بعد يوم ، قصةً إثر قصـة . فتوقفنا جميعاً عن محاولة كتابة القصة واخذنا نراقب غسان كنفاني .

- ٣ -

في البداية كنتُ أراقب اسلوب غسان كنفاني في الكتابة . لقد قرأتُ له قصةً او قصتين قبل ان اتعرف اليه فشعرتُ انه يصطنع الاسلوب . كان يصيغ جمله وخصوصاً تلك المستخدمة في الحوار بلغةٍ تبدو كأنها لغة القصص الأجنبية المترجمة إلى العربية ، ومن ناحية أخرى كان يستخدم في السرد كلماتٍ كانت تستخدم بابتذال في لغة الشعر الحر الشائع تلك الايام . وعندما تعرفتُ اليه دهشتُ لما وجدته يتحدث بالأسلوب نفسه . كان علي أن أخفي ابتسامتي في المرة الأولى التي قرأ لي فيها مخطوطة قصة قصيرة ينوي نشرها . لقد شعرتُ وكأني أستمع الى انسان له طريقة معينة في الحديث ، ويعتقدُ أن عليه

تخصيص جزء من حديثه للنشر . لقد أحببتُ اسلوبه في الحديث ، ولم احبه في الكتابة . في الحديث كان حضوره الدائم يعطي كلماته قوةً ما تؤثر في المستمع ، اما في الكتابة فإن كلماته لم تستطع ان توجد حضوراً للناس الذين يروي قصتهم . لقد اعتقدتُ يومها ان الطريقة الوحيدة التي تجعل اسلوبه صالحاً للقصص هي ان يكون نفسه بطل القصص التي يكتبها ، وكان ذلك عكس ما يفعل ، فكل قصصه كانت تحكي قصص اشخاصٍ ومواقف لا علاقة مباشرة له بها . كان اسلوبه بالنسبة لي يختلفُ عن الاسلوب الجيد للقصص ، فلقد كانت عندي يومها فكرة محددة عن ذلك الاسلوب ، مع انه لم يكن عندي فكرة محددة عن أي شيء آخر تقريباً .

كان الاسلوب الجيد للقصص هو الذي ينتقلُ بك من صفحة لاخرى دون ان تشعر به لأن فيه حركة خفية تستأثر بمشاعرك وتفكيرك ، وتجعلك تنسى انك تقرأ .

فاذا كانت اللوحة الرائعة تصافح عينيك بشيء آخر غير اللون والضوء والخطوط ، كذلك كانت القصة الجيدة تأتي لك بشيء آخر غير الكلمات والأشخاص والمواقف .

كانت الكلمات الأولى في قصص غسان تأتي مشحونة بالشيء الحقيقي بلا شك ، ولكنها كانت مشحونة به بشكلٍ متوتر لا يساعدها على الاحتفاظ به ، وهكذا كان يسقط منها ويضيع ، حتى تأتي نهاية القصة لاهثة بكلماتٍ وأشخاص ومواقف ، وذلك فقط .

لقد اعتقدتُ لمدة طويلة ان غسان يستطيع ان يكتب بشكلٍ افضل ، وخصوصاً بعد ان تأكدتُ انه لا يصطنع الاسلوب ، فلقد شاهدته يكتب ورأيت كيف تخرج الكلمات من بين يديه دون تكلّف أو عناء ، ثم عرفتُ انه يشاركني وجهة نظري في الاسلوب فلقد كان يصر على القول بأنه « يريد القصة واقعية مئة بالمئة ، وتقدِّم في الوقت نفسه شيئاً غير موجود » .

لقد اعتقدت أن مشكلته هي الكتابة السريعة ، لو أنه يحاول اعطاء الكتابة الوقت الكافي ، لو أنه يكف عن النشر السريع ، لو أنه يحاول الاحتفاظ « بالشيء الحقيقي » بدل اجهاضه على الورق ، لو . . . . . .

ثم نشر قصة « القط » .

قرأت القصة في الولايات المتحدة وكنتُ قد اتيت اليها قبل سنة ونصف السنة للدراسة الجامعية ، وعلى الفور كتبتُ لغسان أبلغه اعجابي الشديد بها ، فأجاب ان هناك اقلية اعجبت بالقصة اما الغالبية فلقد اهملتها اهمالاً تاماً .

« القط » قصة شابٍ يجلس في المقهى وحيداً مع الرفاق . ليس في القصة أي حديثٍ بينه وبينهم ، الحوار الوحيد الدائر هو بينه وبين نفسه . القصة لا تحاول اغراءنا بذلك الحوار ، ومن سطورها الأولى ندركُ انه

حوارٌ مزمن يتكرر دوماً مع الشاب ، ونشك في انـه من ذلك النوع الذي ان توقفَ لفترةٍ بسيطة بفعلِ مسكنٍ ما ، فانه ما يلبث ان يعود من جديد ، انـه حوارٌ بـين عالمين ليس بينهما صلة حقيقية . بعد سطورٍ قليلة يصدق حدسنا عندما يترك الشاب المقهى باتجاه بيت « امرأة » في اطراف المدينة .

في الطـريق يشاهـد الشـاب قطاً مقعياً على جانـب الـرصيف ، وفي عينيه « نظـرة مملـوءة باستسـلامٍ غريبٍ وانتظـار » . تعتـري الشـاب « رجفـة قوية وسريعـة » عندما يستدير حول القطويرى ان ساقيه مهروستين وان دمه جامد مخلوط بشعره على الرصيف .

يتابعُ الشاب طريقه الى بيت « سمـيرة » في اطـراف المدينة ، وفي غرفتها يضع نقوده على الطاولة ، ثم يترك الغرفـة دون ان يمـارس معهـا ما اعتـاد ان يمارسـه في السابق .

عندما قرأت « القط » تملكني شعـورٌ أكيد بأن ماكنـا نحلمُ بكتابتـه ايام رابطـة « الادب والحياة » لن يُكتـب أبداً . ترجمتُ القصة للانكليزية وتقدمتُ بها كوظيفة في مادة الأدب الانكليزي . أُعجبت استاذة المادة بالقصـة وطلبت مني ان أقرأها على الطلبة في المحاضرة وان اقدم لها بنبذة صغيرة عن حياة المؤلف .

بعد المحاضرة دعتني الاستاذة الى غرفتها وسألتني :

ـ ما معنى عنوان القصّة ؟

كنتُ قد ترجمتُ القصة ترجمةً حرفية ، ولكني غـيرتُ العنوان من « القط » الى « نهاية شيء ما » ، ولما اخبرتها بذلك ، إبتسمت وقالت :

ـ حسناً ، هذا ما قصدته بسؤالي ، لماذا لـم تختر مثلاً « بداية شيء ما » ؟ بعد نقاشٍ طويل سألتني :

ـ هل قرأت همنغواي ؟

ـ لا ، كل ما قرأته له « لمن تُقرع الأجراس » وبضع قصص قصيرة .

ـ لقد كان همنغواي يهتمُ بالجُمَلِ التي تحتفظ بمعناها حتى ولو عُكستْ ، مثلاً لقد قال في « الشيخ والبحر » جملة « قد يُقهر الإنسان ولكنه لا ينهزم » ولو عكست الجملة لِـ « قد يهُزم الانسان ولكنه لا يُقهر » فالمعنى لا يتغير . هل في الثقافة العربية وضعٌ أخلاقيٌ لقضية يكون لنهايتها وبدايتها معنى واحد ؟ .

*

« بداية شيء ما » أو « نهاية شيء ما » لم يكن ذلك مهماً . ما كان مهماً بالنسبة إليّ هو أن « القط » هي القصة الأولى التي أقرأها لغسان ومع كلمتها الأولى استمعتُ الى ذلك اللحن الحقيقي الذي انسابَ بين سطورها ، خافتاً احياناً ، وعالياً احياناً اخرى ، فلم يضعف ولم ينفجر ، بل ظل حقيقياً حتى كلمتها

الأخيرة ، ثم بقيَ معي ، ففرحتُ به ، ورحتُ اتحدث عنه لكل من اعرفه ، حتى أصابه ما يصيبُ عادةً كل الأشياء الجيدة التي تحدث عنها كثيراً ، تبدد وضاع مني ، فرحتُ أبحثُ عنه بقراءةٍ اخرى للقصة ، فلم أجده ، بل وجدتُ لدهشتي شيئاً آخر . لقد اكتشفتُ ان « القط » هي القصة الاولى التي اقرأها لغسان وليس فيها ذكر لفلسطين .

لقد تضايقتُ من ذلك الاكتشاف ، وشعرتُ كأن غسان اخذ يعيش في الأدب الوضع الذي نعيشه في كل مجالات الحياة الاخرى . فلقد نجحنا في تلك المجالات في كل ما حاولناه وليس له علاقة بفلسطين ، وفشلنا بأن نقيم أي وضعٍ له علاقة دائمة بها . منذ بدء الدراسة الثانوية كنا نؤلف الجمعيات السرية التي نتحدثُ فيها عن فلسطين ، وعندما تأتي امتحانات آخر السنة كنا ننسى الجمعيات فننجح في الامتحانات ونبتعدُ عن فلسطين .

وفي نهاية الدراسة الثانوية انخرطنا في الأحزاب القـومية التي تعمل من اجل الوحدة ، ونشطنا من اجـل تحقيق ذلك الهدف بشكلٍ يومي ، وعندما قامت وحـدة مصر وسوريا لم يفرح بها انسانٌ كما فرحنـا بهـا ، ومـع هذا فان ذلك لم يمنع احدنا من القول : « . . . لقد قامت الوحدة العـربية ، ولـم نستطـع بعـد تأليف نادٍ خاص بفلسطين » .

لقد عاشت قصة « القط » معـي بعـد ذلك بشـكلٍ حزين ، وخصوصاً انني كنـتُ اعتقـد ان غسـان كان يعيشُ بشـكلٍ يختلف عنـا ، وانـه يعيشُ صلـة يومية بفلسطين ، بالقصص التي يكتبها عنهـا . ولقـد اشتـد هذا الشعور وانا اقرأ مجموعته القصصية الاولى « موت سرير رقـم ١٢ » ففـي تلك المجموعـة كانـت قصصـه المكتوبة عن فلسطين بشكلٍ غير مباشر أنجح من قصصه المباشرة . ولقد ظهر ذلك التناقض بشكلٍ حاد في قصة

« البومة في غرفة بعيدة» فالقصة جيدة وقراءتها سهلة في منتصفها الأول البعيد عن فلسطين ، ثم تصبحُ صعبة ومفتعلة في منتصفها الثاني الذي يدور في فلسطين . ولما كنا قد تعلمنا في رابطة « الأدب والحياة » ان هناك علاقة عضوية بين الاسلوب والمضمون ، كان علي ان اتساءَل : لماذا يبدو اسلوب غسان جيداً عندما يكون المضمون ليس فلسطينياً بشكل مباشر ؟

تضايقتُ من ذلك التساؤل ، لأنه كان في تلك الأيام من النوع الذي عليك ان تحتفظ به لنفسك ، ولأنه سيبقى في كل الأيام من النوع الذي لا تحب ان تحتفظ به .

- ٤ -

اذكرُ دوماً كيف قرأتُ « رجال في الشـمس » للمـرة الأولى . كان شعوري المتناقض نحو « موت سرير رقم ١٢ » قد أثَر في رسائلي التـي اكتبهـا لغسـان وفي ردوده عليها ، فلـم تعـد الرسائـل تنقـلُ بالحـرارة والوضـوح السابقين ما نريد ان نتحدث عنه ، ولما كان غسان يكره الرسائل الباهتة ، فلقد بحث في دفاتـر رابطـة « الأدب والحياة » حتى وجـد قصـةً قصـيرة لي فنشرهـا في مجلـة « الحرية » التي كان احد افراد اسرة تحريرها ، وفي العدد اللاحـق نشر مقـالاً نقـدياً للقصـة . خصص السطـور الاولى لمدح القصـة ، وبقية المقـال لانتقـادٍ شخصي لي لأني تركتُ الى مكان بعيد لا علاقة له بما تضمنتـه تلك

القصة القصيرة والتي كانت بعنوان « اوراق من صفد » هكذا كان غسـان ، عندمـا لا يستـطيع قول ما يريده بالرسائل الخاصة ، فإنه يلجأ الى الرسائل العامة .

لقد أثارنـي نشر القصـة ، كما اثارنـي المقـال ، فعادت الرسائل بيننا متلاحقة وحارّة ، واخـذتُ انتظـر البريد وانا اتساءل : ماذا في جعبة غسان هذه المرة ؟

عندما فتحتُ المغلّف الثقيل المعنون بخـط غسـان في مكتب بريد الجامعة ، كنتُ في طريقي لحضور محـاضرة تبدأ بعد دقائق ، وبعد « دقائق » وجدتُ نفسي في نادي الجامعة وقد انتهيتُ من قراءة « رجال في الشمس » .

لقد قرأت القصة كما تُقرأ الرسالة في جلسة واحدة ، فلقد كانت خبراً جديداً لم تمهد له اخبار البلاد التي كنتُ اقرأها بشكلٍ يومي ، وفي الوقت نفسـه كان احساسـاً خفياً يعيش معي منذ سنـوات ، وعلى الفـور اجتاحنـي شعورٌ غريب غير مفهوم ، لقد شعرتُ اني ابتعدتُ عن

البلاد واقتربتُ من الوطن .

الابتعاد والاقتراب من مكان واحد ، شعور سيتجدد معي في المستقبل ، وسيأخذ اشكالاً واطواراً مختلفة ، ولكني اذكرُ دوماً انني احسستُ به لأول مرة عندما هرعتُ لأقرأ « رجال في الشمس » للمرة الثانية في اليوم نفسه الذي وصلتني فيه .

« رجال في الشمس » قصة ثلاثة فلسطينيين لايعرف أحدهم الآخر ، ولكنهم وجدوا في البصرة في وقتٍ واحد لأنهم يريدون عبور الحدود الى الكويت بطريقٍ غير شرعي ، ليعملوا هناك ويكسبوا الرزق الذي لم يستطيعوا تأمينه في البلاد المختلفة التي جاءوا منها .

في البصرة اكتشف كل واحد منهم انه لا يستطيعُ دفع ثمن المهربين المحترفين ، فأخذ كل على طريقته الخاصة يبحثُ عن مخرج حتى التقوا جميعاً وتعارفوا عند مهرب

غير محترف وعدهم بتوصيلهم الى الكويت بثمن رخيص .

« ابو الخيزران » هو اسم المهرب . وهو سائق ماهر لشاحنة مياه كبيرة تخص تاجراً كويتياً ثرياً ولا تخضع للتفتيش عند نقطة الحدود .

كانت خطة « ابو الخيزران » للتهريب خطة بسيطة ، كان عليه ان يعود بشاحنة المياه الى الكويت فارغة ، ولهذا رأى انه يستطيع ان يأخذ الثلاثة معه . يركبون الى جانبه اثناء الطريق ، وقبل نقطة الحدود يخبئهم داخل خزان المياه الفارغ ، وبعد التصديق على اوراقه والابتعاد قليلاً يستطيع ان يخرجهم ليعاودوا الركوب الى جانبه ومتابعة الرحلة .

الفلسطينيون الثلاثة لم يقتنعوا بهذه الخطة البسيطة . كان « ابو القيس » وهو أكبرهم سناً غير متحمس لها منذ

البداية ، فلقد أعتقد انها مغامرة غير مأمونة ، وكان يميل الى الذهاب مع المهربين المحترفين ، وتحمل كلفتهم الباهظة ، وكان الصغير « مروان » مشتت العواطف وموزع التفكير وغير قادر على ان يحزم أمره ويندفع بأي اتجاه . وهكذا كان على « اسعد » وهو أكثرهم خبرة وتجربة ان يتخذ القرار .

استطاع « اسعد » بذكائه وخبرته ان يقود « ابي الخيزران » للاعتراف بأن عمله ليس نقل المياه ولكن تهريب اشياء اخرى تخص التاجر الكويتي ، تهريب الناس هو عمل اضافي يقوم به ليزيد من دخله ويحصل على رفقة للرحلة الطويلة المملة .

هذه المعرفة بحقيقة « ابو الخيزران » لم تؤثر على قرار « اسعد » . كل ما فعلته انها اعطت اسعد السلطة الاخلاقية لقيادة « ابو القيس » و« مروان » وفق القرار

الذي اتخذه بينه وبين نفسه . لقد قبل بالمغامرة لأنــه في الواقع لم يكن يملك بديلاً آخر .

في الحقيقة كان « ابو الخيزران » مهرباً وليس محتالاً ، وكان بينه وبين نفسه يعتقد ان خطته مأمونة وانــه يقـدمُ خدمة للآخرين ، فلقد قام بمثـل هذه العملية من قبـل ونجح .

في هذه الرحلـة يصـادف « ابـو الخيزران » الحـظ السيء . فعند نقطة الحدود يصرُ الموظفون على مداعبتـه بنكاتٍ سمجة تنهش الوقت المكتوي بشمس الصحراء . يحاول ان يتخلص من احـاديث الموظفـين اللزجـة دون جدوى ، وعندما يعود الى السيارة ويقودها مسافة صغيرة ويتوقف ليفتح الخزان ، كان الوقت قد فاته ، فلقد مات الثلاثة اختناقاً .

لـم تكن هذه المرة الأولى التـي يتعامـلُ بهـا « ابـو

الخيزران » مع الحظ السيء ، فلقد كان هو الآخر فلسطينياً ، وفي عام ١٩٤٨ أصيب في احدى المعارك وعلى منضدة الجراح خسر رجولته ، وكان بعد ذلك يردد دوماً بينه وبين نفسه « ضاعت الرجولة ، وضاعَ الوطن ، وتَبّاً لكل شيء في هذا الكون الملعون . . . » .

قاد « ابو الخيزران » الشاحنة ، وفي احدى مزابل الكويت رمى جثث الرفاق الثلاثة بعد ان جردهم من ساعاتهم اليدوية . وقبل ان يعود ليقود الشاحنة مرةً اخرى كان يقاوم فكرةً تشتعل في رأسه ، وعندما لم يستطع ان يقاومها أكثر مما فعل ، اخذ يصرخ :

« لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا ؟ » .

الوضع المأساوي للقصة لا يتمُ داخل خزان المياه الفارغ ، عندما يختنق الثلاثة ، المأساة تحدث قبل

ذلك . انها تحدث في اجتماع الثلاثة بـ « ابو الخيزران » للمرة الاولى . كل القصة تدو حولَ ذلك اللقاء ، نصفها الاول يمهّد له ، ونصفها الثاني يكون نتيجة منطقية له .

قبل اللقاء يعرفنا الكاتب على الفلسطينيين الثلاثة بحركاتٍ سريعة ، وواقعية آسرة تثيرُ فينا حس الفضول . نريدُ ان نتعرف عليهم بشكلٍ أفضل ، نريد ان نغوص في اعماقهم ، نريدُ ان نتضامن معهم بشكلٍ أقوى ، والقصة لا تسمحُ بذلك . القصة تصورُ ثلاثة اشخاص يعيشون حياةً قاسية لا لأنهم فلسطينيون ، ولكن لأن الحياة قاسية . كان من الممكن ان يكونوا سوريين او عراقيين او ايرانيين ، ونحنُ نرفضُ هذا الوضع ، لأننا نريدُ للقصة ان تكون فلسطينية وان يكون للفلسطينيين فيها وضعهم الخاص . فالفلسطيني قد يكون معذباً وفقيراً لكنه ، في الوقت نفسه ، يملك قضية

خاصة .

عندما يفشلُ الثلاثة في التعاقد مع مهربٍ محترف كما يفعل الآخرون ، نعتقدُ ان القصة عادت الى نفسها ، واخذت تشقُ طريقها الخاص ، وعندما يتعرفون على « ابو الخيزران » ويتفق الأربعة على اللقاء نسرعُ في القراءة لنرى ماذا سيتم في هذا اللقاء .

يصدقُ حدسنا في اول اللقاء عندما يبدأ « اسعد » الحديث بقوله : « اريد ان اقول شيئاً ، نحنُ من بلدٍ واحد » ثم يحدثُ الانهيار ، فكل اللقاء بعد ذلك يدور حول مساومة عادية من الممكن ان تحدث بين أية اربعة اشخاص يتساومون على السعر وفي أي مكانٍ من العالم . ليس هناك كلمة سرٍ فلسطينية !

عندما انتهى اللقاء خاب املنا نهائياً فابتعدنا عن الرجال الثلاثة ، وهيأ الكاتب كل الظروف الممكنة لهذا

الابتعاد ، فبدلَ ان يأخـذ القـراء الى داخـل الخـزان ، اخذهـم مع « ابـو الخيزران » لستمعـوا لأحاديثـه مع موظفي الحدود . بالطبع لقـد أدرك كل قارىء بشـكلٍ مسبـق ان الثلاثـة سيموتـون اختناقـاً داخــل الخــزان الفارغ ، ومع هذا فلقد تفجرَ في ضمير كل قارىء سؤال « لماذا لم تدقوا جدران الخـزان ؟ » قبـل ان يصرخ به « ابو الخيزران » .

لقد كان سؤالاً غبياً ،فمما لا شك فيه ان الثلاثة قد دقّوا جدران الخزان ، وصرخوا ، واستنجدوا وفعلـوا كل ما في طاقتهم ليحتفظوا بالرمقِ الأخير ، فذلك ما يفعله كل انسان متشبّث بالحياة . لقد مات الثلاثة اختناقاً لا لأنهم لم يدقـوا جدران الخـزان بل لأنـه لم يكن هنــاك من يسمعهم ، واذا كان هناك من سمعهـم فانـه لم يكلف نفسه عبء نجدتهم .

ومـع هذا فلقـد كان السـؤال حقيقياً وفي المستقبـل

سيصبح سؤالاً مهماً ، فهو يصور الطريقة التي يتعاملُ بها العرب مع المآساة ، نحنُ دوماً نتنبأ بالمأساة قبل وقوعها ، ودوماً نحنُ نصابُ بالدهشة عند حدوثها .

« لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ » سيصبح سؤالاً مهماً في الأدب العربي .

- ٥ -

بعد أيام استلمتُ رسالة اخرى من غسان يذكرني فيها برسالتي التي كتبتها له بعد قراءتي لقصته « القط » ويؤكد لي انه استفاد من تلك الرسالة ، ولكنه الآن لا يريدُ رسالة اخرى ، انه يريد مقالاً مسؤولاً حول « رجال في الشمس » .

كنتُ أعرف بشكل كامل ما الذي اريد أن أكتبه حول « رجال الشمس » ، فبعد قراءتي للقصة ادركتُ بشكلٍ واعٍ لماذا شعرتُ بشكل غير واعٍ عندما قرأت « القط » بان ماكنّا نحلمُ بكتابته ايام رابطة « الادب والحياة » . لن يكتُب أبداً ، ولماذا غيرتُ العنوان الى « نهاية شيءٍ ما » . فلقد كانت بالفعل نهاية الحلم الذي

عشناه في الرابطة .

لقد كنا في الرابطة من ذلك الجيل الذي لم يفهم أبداً كيف ضاعت فلسطين ! كل الاسباب التي قيلت لنا لم تقنعنا . وكنا نشعرُ بالغريزة اتنا لن نستطيع التقدم خطوة واحدة بدون فهمٍ كاملٍ للـذي حدث عام ١٩٤٨ . كانت فلسطين تعيشُ معنا في عالمين . عالـم خارجـي مضطرب وباهـت ، وعالـم داخلي مفصـول ودافىء ، وكانت الكتابة تفجر صراعاً بـين هذين العـالمين . كنـا نعتقد انه صراعٌ بين الأسلوب والمضمون ، كان العالم الخارجي هو الاسلـوب ، وكان العالـم الـداخلي هو المضمون . كنـا نسمـي ما نحبـه مضمونـاً ومـا نكرهـه أسلوباً . كنا نريد ان نخلق اسلوبـاً جديداً من الأشياء التي نحبها ، من حقيقتنا الداخلية ، وكنـا نعتقـد اننـا بذلك سوف نغير العالم الخارجي . وجاء غسان كنفاني منذ البداية مُنْحازاً الى العالم الخارجي ، وفي « القط »

استطاع ان يرينا ان التناقض بين العالمين ينتهي بالدم على رصيف الشارع ، ثم جاء في « رجال في الشمس » ليرينا ان فلسطين ضاعت كما يضيع اليوم العربي ، بالمجان ، والمصادفة ، وفقدان المسؤولية . ليس في الأمر أي سر . اذا كان هناك سرٌ ما في حياتنا فهو ان العالم الداخلي ، الحقيقة الداخلية، المضمون، أشياءٌ غير مهمة !

قبل ان اكتب مقالي عن القصة ذهبتُ الى مكتبة الجامعة واستعرتُ بضعة كتب للنقد الادبي ، وعكفتُ على قراءتها لأستعيد معرفة الاصطلاحات الأدبية بعد هذا الانقطاع الطويل .

لم أعد اذكر اسماءَ تلك الكتب أو اسماء مؤلفيها ، ولكني اذكرُ جيداً انني استمتعتُ بقراءتها ، فكانت هي تلك المرة الأولى التي أستمتعُ فيها بقراءة كتب النقد . في الماضي كنتُ اقرؤها على مضض ، فلقد كنتُ اقرؤها دون

ان أكون واعياً للذي اريده منها ، اما بعد «رجال في الشمس » فلقد ذهبتُ الى تلك الكتب بهدفٍ محدد فقرأتها بلذةٍ وشغف واخذت منها أكثر من الذي أردت، أن آخذه .

لقد فهمتُ اخيراً ان كل الادب يبتدىء بالتجربة الرومانسية ، فالكاتب انسان يتطلع حوله فيرى عالماً مضطرباً مفتتاً ويختلف عن العالم الذي يعيش داخل نفسه ، المغامرة الأدبية تبدأ عندما يحاول الكاتب ان يعيد ترتيب العالم على الشكل الذي يرضيه ، وهي مغامرة فاشلة دوماً . والكاتب الحقيقي هو الذي يفهمُ هذا الفشل مبكراً ، فينتزعُ نفسه من تناقض العالمين ويعيش في العالم الخارجي واقفاً عاطفته كلها على فهمه وتصويره بدقةٍ مطلقة . هذا التصوير الدقيق يستوعبُ عاطفة القراء ، ويجعلهم أكثر وعياً بالعالم ، وأكثر قدرةً على تغييره . الموهبة هي عاطفة الحقيقة ، والكاتب الحقيقي

هو الرومـانسي الـوحيد الـذي لا يعيش المرحلـة الرومانسية .

قبل أن أكتب ذلك تساءلت بيني وبين نفسي : « اذا كانت « رجال في الشمس » قد قادتني اخيراً الى معرفـة معنـى الأدب أفليسـت هذه القضية شخصية؟» وهـكذا عكفتُ على كتابة موضوع عام ، فعقدتُ مقارنـة بـين « رجال في الشـمس » وقصـة جديدة كانـت قد نُشرت لابنة موشي ديان بعنـوان « وجـه جديد في المرآة » . في الواقع كانت تلك المقارنة غير مهمة على الاطلاق ، ولقد دللت على ذلك الصفحات التي كتبتها فمزقتها وارسلتُ رسالة لغسان اعتذرُ فيها عن كتابة المقال مؤكداً له اني في الأدب مولعٌ بالقراءة وليس بالكتابة ! والواقع اني كنتُ مولعاً ،بمراقبته وانتظار ما سيكتبه غسان بعد « رجال في الشمس » ؛وخصوصاً انني تذكرتُ حديثاً دار بيني وبينه قبل سنوات وفي مقهى « الفاروق » بدمشق .

كنا في المقهى وقد بقينا وحدنـا في ساعـة متأخـرة من الليل بعد نقاش طويلَ مع الرفاق . واخذ غسان فجـأة يتحـــدثُ عن جده وأبيه وذكريات طفولتـــه في عكا .

حدثنـــي كيف اضطـروا ان ينتقلـوا من بيتهـــم القديم هنـاك ، ومـا صاحـب هذه العملية من مرحلـة عاطفية حزينة ، ووجد على جدرانه محفوراً بالحجر حرفي « ف . ك » ، فلقد كان اسم ولده فائز كنفاني ، وبعد ذلك انتقل غسان للحديث عن قصةٍ قصيرة كان قد قرأها لجي دي موبسان . بعنوان « قطعـة خيط » كان معجبـاً بالقصة حتى انه تحدث عنها بالحرارة نفسها التي تحدث فيها عن ذكريات طفولته في عكا .

كانـــت القصـــة عن فلاحٍ نورمانـــدي بسيط له كل الخِصال النورماندية الاقتصادية ، ويعتقدُ أن عليه التقاط أي شيء يراهُ في الطريق وله فائدة . وقد ذهب ذات يومٍ إلى السوق الاسبوعية التـي يلتقـي فيهـا الفلاحـون من

القرى المجاورة . وقد سبب له ذلك متاعب هائلة . لقد وجد امامه على الطريق قطعة خيط فانحنى والتقطها ووضعها في جيبه ، وبعد الظهر استدعاه البوليس متهماً بأنه خبأ عقد اللؤلؤ الذي اضاعه أحد التجار الاغنياء ، وقد دعم البوليس تهمته بشاهدٍ رأى الفلاح المسكين يلتقط بحذر عود اللؤلؤ ويضعه في جيبه . نقل لي غسان تفاصيل الاستجواب وكيف كان الفلاح المسكين يصرخ بألم ودهشة : « انها قطعة خيط ، مجرد قطعة خيط يا سيدي » ولا أحد يصدقه . وحتى بعد ان اعترف احد الفلاحين انه وجد العقد ، ظلت الشكوك تحوم حول صاحبنا ويُتهم بانه اعطاه للآخر ليبعد التهمة عنه ، وعندها اخذ الفلاح المسكين يصاب بالحمى والهذيان ، والترديد الدائم « انها قطعة خيط ، مجرد قطعة خيط . . . » .

روى غسان القصة لي بشكل مؤثر والح علي ان

اقرأها ، وبالفعل احضرها لي في اليوم التالي وكانت ضمن كتاب مجموعة قصص قصيرة لجي دي موبسان بالانكليزية فقرات القصة بمساعدة القاموس العصري ، واكتشفت ان الفلاح المسكين يموتُ في نهاية القصة من الحمى والهزيان ، فسألت غسان عندما اجتمعت به ثانية .

ـ لماذا لم تقل لي ان الفلاح المسكين يموت في نهاية القصة ؟ ابتسم ولم يجب على سؤالي ،بل راح يسألني رأيي بالقصة ، وبعد قليل قال :

ـ مع احترامي الشديد لجي دي موبسان ، موت الفلاح النورماندي في نهاية القصة لم يكن ضرورياً . انه يضيف وضعاً مأساوياً ليست بحاجة اليه . فقلتُ له دون ان افكر ، ولمجرد النقاش .

ـ وماذا لو كانت القصة حقيقية ؟

لم يهتم بسؤالي وراح يحدثني عن فهمه لمعنى القصة

الرئيسي وقوتها الفنية ، ثم توقف فجأة وتطلـع الى بعيد وكأنـه يستمـع للسـؤال يأتـي من عالـم آخـر ، وراح يتساءل : « ماذا لو كانت القصة حقيقية ؟ » !

* * *

بعـد ثلاث سنـوات من صدور « رجـال في الشمس » ، وفي مقهى « الفاروق » بدمشق ، سألني بلال الحسن :

ـ هل تعرف أن « رجال في الشمس » قصة حقيقية ؟

- ٦ -

لم تسمح لي الظروف بالتعرف على باسل الكبيسي في الأيام التي كنتُ أنتظرُ فيها فرصةً للقائه، وبعد سنوات عندما قادتني الظروف للتعرف اليه ذهبتُ للقائه دون اي حماس .

لقد سمعتُ عنه أول مرة وأنا في دمشق فلقد كان اسمه يتردد في اجواء حركة القوميين العرب كمناضلٍ يقوم باعمال جريئة ضد حكم نوري السعيد في العراق . ثم سمعتُ عنه من غسان كنفاني الذي كان يتوقفُ في العراق في رحلاته بين دمشق والكويت التي كان يعمل مدرساً فيها . ثم سمعتُ عنه وانا في الولايات المتحدة من قراءتي لاعداد من الجريدة التي ترأس تحريرها في بغداد

لمدةٍ بسيطة بعد انقلاب عام ١٩٦٣ .

كلُ ما سمعتُ عنه في تلك الازمنة المتباعدة كان يزيدُ من حماستي للتعرف اليه ، ولذلك فالاسباب التي جعلتني افقد هذا الحماس عام ١٩٦٥ عندما تعرفتُ اليه كانت خاصة بي وبالظروف وليست به . ففي ذلك العام كان الطلبة العرب الحزبيون يعيشون حياة الغربة القاسية في الولايات المتحدة . لقد عشنا الغربة عندما تركنا الوطن في آواخر الخمسينات ، ولكنها كانت غربة مثيرة قادتنا للانخراط في نشاط الدفاع عن القضايا العربية في المجتمع الأميركي كما قادتنا لتطوير الحوار بيننا كقوميين عرب وبعثيين وشيوعيين ، فاتسمت حياتنا بالحيوية ، وغربتنا بالمعنى ، ولقد استطعنا ان نحتفظ بتلك الحيوية رغم التناحر الذي دبّ بين اطراف الحركة الوطنية عام ١٩٥٩ ، ثم احتفظنا بها ايضاً رغم انفصال ١٩٦١ ، ولكننا لم نستطع الاحتفاظ بها بعد تناحر ١٩٦٣ ، وما

أن جاء عام ١٩٦٥ حتى كانت حيويتنا قد استُهلكت، وارتباطاتنا الحزبية قد وهنت ، فبدأنا نتذوق طعم الغربة القاسية ، والحياة التي تفقدُ المعنى . وفي الغُربة اتضح لنا ان خلافاتنا الحزبية خلافات وهمية ، وأننا في الواقع ننتمي الى فصائل مختلفة من حزبٍ واحد فشلَ في ان يكونَ حزباً . وعندها استعدنا كل أحزان الحياة العربية ، واضفنا اليها احزاناً جديدة اكتشفناها في الخارج .

لقد صورت لنا تلك الاحزان اننا نفهمُ تماماً ما يدورُ في الوطن العربي ، وان فهمنا هذا افضلُ من فهم الذين يعيشون فيه ، ولهذا كنا نتضايق كلما حضر « حزبي » من الوطن ليتابع دراسته العليا في الولايات المتحدة ويحاول ان يعيدنا الى الاجواء التي تجاوزناها وتخطيناها . وهكذا سافرتُ في صيف ١٩٦٥ لحضور مؤتمر الطلبة العرب السنوي في ولاية « كولورادو » وانا اعرف اني

سألتقي بباسل الذي حضر قبل شهور الى واشنطن ليتابع دراسته العليا ، وكمسؤول عن التنظيم الطلابي لحركة القوميين العرب ، واعرفُ اني فقدتُ رغبتي القديمة بالتعرف اليه .

كان باسل منهمكاً في اعمال المؤتمر ، يحضرُ كل الجلسات ، ويتابع النقاش الدائر في كل جلسة ، وبين الجلسات كان يتحدث عما دار في الجلسة الماضية وعما يتوقعه في الجلسة القادمة . في المساء كان دوماً على موعدٍ مع طلبه يعرفهم أو طلبة يريدُ ان يتعرف اليهم . في اليوم الثالث للمؤتمر جاءني احد الاصدقاء وهمس في اذني : « كنتُ اعتقد ان باسل عنصرٌ قيادي ، انه يتصرف وكأنه يحضر مؤتمراً كهذا لاول مرة . لماذا يضيع وقته في هذه التفاصيل . ولماذا . . . . » وقبل ان ينهي سؤاله قلت له : « لا أعرف » !

كان المؤتمر السنوي لمنظمة الطلبه العرب يضم حوالى

(٦٠٠) طالب من مختلف جامعات الولايات المتحدة ، ويستمرُ انعقاده اسبوعاً كاملاً ، وفي نهاية الاسبوع كان المؤتمر يختتم اعماله بانتخاب لجنة تنفيذية تشرف على اعمال المنظمة في السنة القادمة . لقد انهمك باسل بالانتخابات في الليل وفي النهار . رفض ان يرشح نفسه ، ولكنه كان يُحضر للانتخابات بعقد الاجتماعات الخاصة ، وعقد التحالفات ، وبعد حضور اجتماعين من هذه الاجتماعات عاد الي صديقي وهمس مرة اخرى : « هل نحنُ بصدد انتخاب لجنة تنفيذية لمنظمة الطلبة العرب ، ام مكتباً سياسياً للثورة العربية ، لماذا يهتم باسل بالانتخابات بهذا الشكل ؟ ما هي أهمية . . . . » وقبل ان يكمل سؤاله قلت له : « لا أعرف » .

في اليوم الاخير للمؤتمر جاءني بعض الاصدقاء وقالوا انهم يريدون ان يجتمعوا مع باسل في جلسة خاصة لحديث سياسي ، فذهبت لباسل وعرضتُ عليه رغبتهم

فرحب رأساً بالفكرة فقـال « زين ، نستـطيع ان نسهـر الليلة طويلاً ، ما دام المؤتمر ينتهي هذا المساء ، وليس علينا ان نستيقظ باكراً في الغد ! » .

في المساء ذهبت الى غرفة باسـل لاصحبـه الى حيث يجتمع اصدقائي ، فوجدت انه ترك لي رسالةً يخبرني فيها أنه في البهو مع بعض الاصدقاء ، وهناك رأيته مع حوالى عشرة اصدقاء ، وبعد ان عرفني اليهم سألني اذا كانت سهرتنـا مع الاصدقـاء محـددة بوقـتٍ ما أم انهـا سهـرة مفتوحة ، قلت له ليس هناك وقت محـدد ، فاجلسنـي واحضر لي فنجاناً من القهوة .

كان اصدقاء باسل من طلبة الدراسات العليا ، كانوا من العـراق وفلسطـين والسـودان ، بعضهـم اصدقـاء قدامى ، والآخرون تعرفـوا على بعضهـم في المؤتمـر عن طريق الاصدقاء المشتركين .

كانوا يتحدثون عن اشخاصٍ يعرفونهم في الوطن . فلانٌ دخل السجن في شهر كذا ثم أُفرج عنه في شهر كذا ، فلانٌ ما زال في السجن وقد وصلتْ منه رسالة يقولُ فيها . . . . ! فلانٌ عمل اخيراً مع الحكومة وارسلوه لسفارتهم في . . . ! لقد فهمتُ من احاديثهم أن اربعةً منهم قضوا فتراتٍ معينة في السجون العربية في السنوات الثلاث الماضية . كانت أحاديثهم مثيرة ، كانوا يتحدثون عن فلان في السجن ، تماماً كما يتحدثون عن فلان في السفارة ! كانت الابتسامات مختلفة ، فابتسامة السجن غير ابتسامة السفارة ، ولكن عفوية الحديث كانت واحدة .

بعد أكثر من نصف ساعة تأكدتُ ان الجلسة ستطول ففكرتُ ان اقاطع الحديث واعرض عليهم الانتقال معي للقاء اصدقائي ، ولكني فجأةً تذكرتُ كلمةً قرأتها قبل شهور يقولُ فيها بيكاسو : « عندما يلتقي الفنانون

فانهم دوماً يسألون بعضهم عن اسماء الدكاكين التي تبيعُ الالـوان باسعـار رخيصـة ، وتلك التـي تبيع الفـراشي الجيدة . أما عندما يلتقـي نقـاد الفـن ببعضهـم فانهـم يتحدثـون عن مصـير الانسـان ، وامـكانيات المغامـرة الانسانية » لم اقاطع حديث باسل واصدقاءه .

بعـد حوالى الساعـة والنصف ترك الجميع فذهبـتُ وباسل للقاء اصدقائي .

ابتدأ باسل الحديث بسؤالِ الحـاضرين عن رأيهـم في نتيجة الانتخابات ، وبعـد ذلك راح يسـألُ كل واحـدٍ منهم عن العمل الطلابي في جامعته ويخوضُ معه نقاشاً حول اوضاع الطلبة العرب في تلك الجامعة . كان نقاشه غريباً ، فلقد كان مسؤولاً عن التنظيم الطلابـي لحـركة القـومية العـرب ، وكان يدخـل في مناقشـات تخصُ الاوضـاع التنـظيمية للبعثيين والشيوعيين ، كان يعـرفُ تفـاصيل تلك الاوضـاع بالاسماء والتـواريخ . وكان

اصدقائي يجيبون على أسئلته ويشتركون معه في النقاش على مضض ، فلقد كانوا يريدون ان يتحدثوا عن اشياء اخرى ، وعند اول فرصة سأله احدهم عن حركة انقلابية تمت في البلاد قبل اشهر وفشلتْ ، وحدد سؤاله عن رأي باسل بسبب الفشل . كان جواب باسل سريعاً ومختصراً .

« ان الذين نفَّذوا العملية لم يريدوا لها النجاح ، ولذلك فشلتْ » . استغرب الجميع هذا الجواب فسألته ان يوضح لنا قصده من ذلك . أخذ باسل يحدثنا باسهاب عن تفاصيل القضية ، كيف كانت خطة العملية ؟ ومن هم المسؤولون عن تنفيذ مراحلها ! وكان رأيه انه كان من الممكن للعملية ان تنجح ، ولكن المسؤولين عن تنفيذها تراجعوا عند اول مشكلة صادفوها ! لو انهم كانوا يملكون الجرأة على مقاومة هذه الصعوبات ، والقدرة على التضحية بانفسهم للتغلب

عليها ، لنجحتْ العملية .

أصغى اصدقائي الى هذه التفاصيل التي كانوا يستمعون إليها لاول مرة بشغف ، ولكنهم لم يقتنعوا بوجهة نظر باسل عن اسباب الفشل ، فأخذوا يطرحون تحليلاً فكرياً لاسباب الفشل لا يهتمُ بتفاصيل العملية ، وما حصل اثناء تنفيذها ، فلم يفهم باسل منطق هذا التحليل ، وبعد نقاشٍ طويل سألهم : « هل تريدون ان تقولوا أن أي عملية سياسية محكومٌ عليها بالنجاح او الفشل مسبقاً ، بغض النظر عن تفاصيل تنفيذها ! بغض النظر عن تصرفات القائمين على التنفيذ !! »

بالطبع لم يكن ذلك هو رأي اصدقائي ، ولكنه كان قريباً جداً من ذلك ! كانوا متحمسين للعملية ، وكان نجاحها سيسعدهم ويحصل على تأييدهم ، وانتقادها الان بشكلٍ مبدئي لانها فشلت ، يبدو منطقاً متناقضاً . وكان من المستحيل ان لا يذكرني هذا المنطق بالمقالات

الفكرية التي قرأناها بعد شهرٍ واحد من انفصال عام ١٩٦١ تحلل اسباب النكسة وتبين انها حتمية تاريخية ، فلقد كان الانسان مجبراً على ان يتساءل : هل كانت وحدة ١٩٥٨ حتمية تاريخية ؟ ، ثم كان مجبراً على التساؤل : لماذا لم تكتبُ هذه المقالات قبل شهر واحد !

استمر النقاش حتى الساعات المبكرة من الصباح ، ولقد تضايق اصدقائي من عدم اشتراكي في الحديث ، فاخذوا يوجهون الي الاسئلة ، ولكني لم اقل شيئاً ، فلقد كنت لا اعرف من أين يمكن الحصول على الالوان والفراشي باسعارٍ رخيصة ، كما كنتُ قد مللتُ من الحديث عن القضايا الكبرى للانسان المعاصر .

عندما انتهى المؤتمر قال لي احد الاصدقاء : « باسل هو اغرب حزبي وقيادي تعرفتُ إليه » . قال ذلك بلهجة استغراب حقيقية .

بعد شهورٍ قليلة حصلتُ على شهادة الماجستير وعدتُ

الى دمشق ، واثناء تلك الشهور قادتني الصُدفة للاجتماع بباسل مرة اخرى ، فلقد امضيتُ في واشنطن اسبوعين لسببٍ لا علاقة له به .

في هذين الاسبوعين تعرفتُ على باسل بشكلٍ جيد ، فلقد امضيتُ في بيته وقتاً طويلاً ، وتعرفتُ على زوجته « نادرة » وطفله احمد والذي كان عمره سبعة اشهر .

قبل سنوات حدثني مناضلٌ قديمٌ في دمشق وقال بان الامتحان الحقيقي للمناضل السياسي ليس السجن ، بل الزواج وكيف يتصرف المناضل بعد ان يصبح رباً لعائلة . اذا كان ذلك صحيحاً فأنا اعرف ان باسل لم يتعرض للامتحان الحقيقي ، فلقد كانت زوجته عضوه في حركة القوميين العرب ، ومع انها كانت تدرك ان هناك امتحانات كثيرة في الحياة ، فلقد كانت تعتقد أن الزواج ليس واحداً منها . كانت نادرة امرأة موهوبة .

بيتهم في واشنطن كان اشبه ما يكون بخلية لحركة

القوميين العرب . اللغة التي كانوا يتحدثون بها في البيت هي نفس اللغة التي يستخدمونها في الاجتماع الحزبي .
اثناء نقاشي مع باسل حول بعض قضايا العمل الطلابي ، تركتْ نادرة اعداد طاولة العشاء وتدخلت في النقاش ، ولتؤيد رأيها أحضرت ملفاً فيه تفاصيل الموضوع الذي كنا بصدده ، ثم عرفتُ انهم يحتفظون بملفاتٍ مرتبة ومنظمة لكل نواحي النشاط الذي يقومون به ، كان هناك نسخ عن رسائل باسل لكل اصدقائه ، يعود اليها كلما كتبَ رسالة جديدة ، كان هناك ملف لاخبار البلاد المهمة من قصاصات الجرائد الاميركية .
كل حياتهم كانت تدور حول الوضع السياسي والعمل الحزبي . أهم أيام الاسبوع في ذلك البيت كان يوم الاجتماع الحزبي ، ذلك هو اليوم الذي يرتبون فيه البيت وينظفونه في الصباح ، وفي المساء يستقبلون اعضاء المجموعة الحزبية التي يعملون معها. وعندما حضرت

واحداً من تلك الاجتماعات شعرتُ اني اتنفس نفحةً من الهواء النقي الذي هبَ فجأة من الخمسينات ولا يحملُ أي غبارٍ من غبار الستينات .

بعـد ذلك أدركتُ معنـى الارتبـاط الحزبـي بالنسبـة لباسل ، فلقد لاحظتُ من احاديثه ، انه عندما يتعرض للحديث عن انسانٍ يعرفه في العمل السياسي ، فانه دوماً يقيمُ هذا الانسان من وجهة نظر اذا كان حزبياً جيداً او سيئاً . كان قادراً على الاعجاب بأي حزبي جيد بغض النظر عن موقفه السياسي ، وبغض النظـر عن الحـزب الذي ينتمي إليه ، فبالنسبة له كان للارتباط الحزبي قيمة بحد ذاتها . الرجال الذين يرتبطون بالعمـل التنظيمـي كانوا رجالاً باحجام حقيقية ويعيشـون في عالـم يفهمـه ويستطيع ان يتعامل معه ، الرجال غير المرتبطـين كانـوا يبدون له باحجام خيالية صغيرة او كبيرة ، ويعيشون في عالم مشـوش لا يفهمـه ولا يستـطيع التعـايش معـه .

الارتباط هو الانتماء ، والانتماء هو الشرعية .

كل ارائه كانت تتشكل وتتطور من التجربة الحزبية ، قال لي مرةً :

« أتعرف ! كل عملنا السياسي في الاحزاب العربية يقودُ في النهاية بشكلٍ أو بآخر ، الى تكريس فكرة الحزب الواحد . انا بصراحة اعتقدُ ان ذلك خطأ ، تجربتي في العمل الحزبي في العراق جعلتني اشكُ في كل ما له علاقة او صلة بالحزب الواحد ! في أي موقع عمل ، أكان مدرسة ، قرية ! او مصنع ، عندما كان شباب حركتنا موجودين مع بعثيين وشيوعيين كانوا يبدون نشيطين ، ومندفعين ، وأكاد اقول اذكياء ! وفي أي موقعٍ آخر كانوا يتواجدون فيه وحدهم ودون منافسة ، كانوا يبدون كسالى وخاملين ، وأكاد اقول اغبياء ، وهذه ليست تجربتي أو تجربة الحركة وحدها ، كل المسؤولين الحزبيين في الاحزاب الاخرى الذين تحدثتُ

معهم يشاركوني هذا الرأي » .

تجربة العمل الحزبي كانت القاعدة التي يقفُ عليها ، والشباك الذي يطلُ منه على العالم . تفاؤله وتشاؤمه السياسي كان ينبعُ دوماً من اوضاع المجموعة الحزبية التي يعملُ معها ، وليس من نشرة الاخبار . لقد تشكى مرةً احد الطلاب من ان باسل يحضرُ لندوةٍ طلابية في واشنطن وكأنه يعدُ لثورةٍ في الوطن ، وعندما وصلت هذه الشكوى لباسل ، تساءل : « وما هو الفرق ؟ » .

كان حديثه السياسي يعودُ دوماً بشكلٍ او بآخر الى العمل الحزبي الذي عاشه والذي خبره ، وكان ذلك يبدو على انه ضيق افق ، وكان الكثيرون ينتقدونه بانه لايستطيع ان يرتفع فوق القضايا الصغيرة ويكّون نظرة شاملة للامور .

كنتُ واحداً من أولئك الذين كانوا يعتقدون ان باسل

يضيع وقته بالقضايا الصغيرة ، ولقد مرت سنوات طوال قبل ان ادرك أنه لا يفرق بين القضايا الصغيرة والكبيرة ، وافهم بشكل نهائي معنى قوله لي ذات مساء عام ١٩٦٥ :

« قبل ستة اشهر كنتُ في العراق ، وكنتُ اجتمع مع قادة البلد ، على مستوى الحكم وعلى مستوى الاحزاب ، وها انا الآن اجتمعُ مع الطلبة ، صدقني ليس هناك أي فرق ، الذي نعاني منه هنا هو نفس ما نعاني منه هناك ، هل تعرف مثلاً ! ان نسبة كبيرة من قادة الحكم في العراق وغيرها كانوا طلاباً تخرجوا قبل سنوات ، ومن هنا ، من جامعات الولايات المتحدة ! ! »

* * *

كان باسل الكبيسي وسيماً وانيقاً وهادئاً . هدوؤه كان يضايقكَ حتى تتعرف عليه بشكلٍ جيد ، وعندها كان

هدوؤه يضايقكَ أكثر . فلقد كان يملكُ شيئاً خاصاً به ، وسواءً اتفقتَ معه أو اختلفت ، كنتَ تحاول ان تشاركه ذلك الشيء ، وكنت دوماً تفشـلُ في ذلك ، فلقـد كان ما يملكه خاصٌ به، لم يأخذهُ من أحد، ولايستطيع احد ان يأخذه منه ، واثناء تلك المحاولات كنتَ تقترب منه ، وتحبه أكثر ، فلقد كان لا يعرف ذلك الشيء ، ولا يعرفُ انه لا يشاركُ به أحداً ! كان يعرفُ شيئاً واحداً فقط ! كان يعرفُ ان حياته مكرسةً من اجـلِ هدفٍ واحـد ! كل الامور الاخرى كانـت اضاعـةً للوقـت ، انتقاصـاً من الرجولة ، ودعوةً للحظ السيء .

كان صديقاً ، وكانت صداقته تقودك لفهمِ حياتـك بافقِ مرحلتين : قبلَ ان تعرفتَ إليه ، وبعد ان تعرفتَ إليه .

كان حزبياً بالشكلِ الذي تصورتَ به الحزبي قبل أن تصبح نفسكَ حزبياً . كان ملتزماً تقرأ في وجهه شجاعة

الانتماء للشرعيةِ المغدورة . كان عربياً ! كان عربياً ، وكالعروبــة كان احتمالاً واحــداً من ضمــن ِ احتمالاتِ كثيرة .

- ٧ -

في منتصف الستينات كان اليوم العربي يبدأ بالاخبار السريعة وينتهي بالأغاني البطيئة ، ولم تكن هناك حاجة لأن تعيش اليوم العربي كله لتكتشف ان ما يدور فيه ليس على علاقة واضحة ببدايته ونهايته ، كنت تستطيع ان تشتري في الصباح الجريدة اليومية لترى ان العناوين الصارخة والافتتاحيات المتوترة في الصفحة الأولى ، والصور الحالمة والهمسات الناعمة في الصفحة الاخيرة تختلفُ ايضاً عما هو مكتوب في الصفحاتِ الداخلية عن حياة الناس وهمومهم اليومية .

لماذا تفتت اليوم العربي الى ايام عديدة مبعثرة ؟

كان غسان كنفاني رئيساً لتحرير جريدة يومية في

بيروت ، ينشر في صفحتها الاولى مقالات سياسية ، وينشر في صفحتها الأخيرة شطحاتٍ رومانسية ، وفي مجلاتٍ اخرى كان ينشر قصصاً قصيرة اشبه ما تكون بالقصص التي كتبها قبل « القط » و « رجال في الشمس » .

ما الفرق بين الكتابة والنّشر ؟

وعندما سنحت لي الفرصة ، وحضر بلال الحسن الى دمشق ، جمعتُ كل اسئلتي وقلت له :

ـ ما رأيك بقصة غسان الاخيرة « ما تبقى لكم » ؟

لقد انتظرت « ما تبقى لكم » لمدةٍ طويلة ، فبعد ان يقرأ الفلسطيني القصة الاولى فانه ينتظر الثانية ، فهو مولعٌ بالانتظار وفاقد لحس الملل . لقد قرأت القصة الأولى كما تُقرأ الرسالة في جلسة واحدة ، ولم استطع ان اقرأ « ما تبقى لكم » في جلسات عديدة . لقد اعطتني

القصة الأولى حساً حرك ما يعيش في اعماقي فوجدتُ نفسي أفهمُ ما يدور حولي في العالم بشكلٍ افضل ، ولم تعطني « ما تبقى لكم » أي شيء . لقد قرأتها بعد عودتي الى البلاد وشعرتُ أني ابتعدُ عن الوطن !

ابتسم بلال وقال : « يبدو انكَ غير معجب بالقصة ! » .

في اليوم التالي أحضر لي عدداً من اعداد مجلة « الحرية » وقرأ لي مقاله النقدي حول « ما تبقى لكم » والذي كتبه فور صدور القصة . كان مقالاً جيداً يدور حول موضوع الأسلوب الذي اعتمده غسان في القصة والذي هو محاكاة لأسلوب وليم فوكنر في « الصخب والعنف » ويبين ان ذلك الاسلوب غير ملائم للمضمون الفلسطيني للقصة . ثم ابتسم بلال مرةً اخرى وقال : « ذات يوم جاءني غسان فقال : ليلة

أمس انتهيتُ من كتابة السطور الأخيرة من قصتي الجديدة ، وعندما وضعت القلم ونهضتُ لاغادر الغرفة حدث شيء غريب ، كان وليم فوكنر امامي يصافحني ويهنئني ! »

ضحكنا طويلاً حتى عاد بلال ليقول :

« ومع هذا فلقد استاء غسان من تركيزي في المقال على اسلوب فوكنر » استمرت احاديثنا حول غسان وكتاباته وكانت انتقاداتي لكتاباته السياسية وقصصه القصيرة حارةً وصادقة ، حتى استوقفني بلال وقال : «الواقع ان ذلك غير مهم . المهم هو حياة غسان نفسها » واخذ يحدثني عن الطريقة التي يعيش فيها غسان في بيروت . الطاقة الهائلة التي يبذلها يومياً في الكتابة ، كتابة المقال الافتتاحي اليومي ، اعداد الجريدة ، وكتابة الاخبار ، واحياناً كتابة اخبار الصفحة الاجتماعية ، كتابة القصص

القصيرة ، كتابة القصص الطويلة ، الكتابة الدائمة لمقالات نقدية باسم مستعار . ثم نقل لي حديثاً دار بينه وبين صحافي قديم قال له : لقد رأيتُ في زماني كثيراً من الصحافيين ، لكن مثل هذا الانسان لم ار ابداً ، انه من نوعٍ جديد » .

تركني بلال في مقهى « الفاروق » افكرُ بغسان واسلوب « الصخب والعنف » وعاد الى بيروت . حاولتُ مرةً اخرى فقرأت « ما تبقى لكم » .

* * *

كانت « الصخب والعنف » من أولى الروايات التي قرأتها في الولايات المتحدة ، وكأي قارىء للقصة توقفتُ عند اسلوبها غير العادي . زمن القصة لا يتبع التسلسل الزمني المعروف ، تقرأ حدثاً معيناً وتعتقدُ انه يحدث في الحاضر لتفاجأ بعد قليل بأنه يحدث في الماضي او

المستقبل . زمن « الصخب والعنف » ممزق الى شظايا كثيرة ومبعثرة .

ثم قرأتُ مقابلة اجراها احد الكتاب مع فوكنر تحدث فيها عن مهمة الكاتب كما يفهمها . في تلك المقابلة أكد فوكنر انه يحاول تصوير الشيء الحقيقي في عصره ، وانه كلما انتهى من كتابة قصة يكتشف فشله فيأخذ في كتابة قصة جديدة . كل كتابٍ جديد هو فشل جديد . وعندها تساءلت لماذا تمزق الزمن في « الصخب والعنف » ولم يتمزق في محاولاته الأخرى ! فلقد كنتُ قد قرأت قصصاً اخرى له .

ثم وجدتُ انه يمكن طرح التساؤل نفسه بالنسبة لكتابٍ آخرين ، فجويس مثلاً كتب « Ulysses » باسلوب مشابه الى حدّ ما لاسلوب « الصخب والعنف » بينما كانت رواياته الأخرى مكتوبة بالاسلوب العادي .

يبدو ان زمن « الصخب والعنف » هو زمن الحساب بالنسبة للكاتب الجاد ، فبعد ان يكون قد قام بمحاولات كثيرة يأتي يوم المحاولة الاخيرة ، وكطبيعة أي شيء فيه حس النهاية ، فإن المحاولة الأخيرة هي حكمٌ اخلاقي أكثر منها قصة أو رواية ، وهكذا اعطى فوكنر حكماً على العالم الذي يعيش فيه . فالصخب والعنف تصور هزيمة الإنسان في صراعه مع الزمن ، فكلما حاول الإنسان التحرر في الماضي ليمسك بالحاضر ويتحكم بالمستقبل كلما سقط في الماضي من جديد . « الحاضر والمستقبل » ما هما الا « الماضي الآن » ! و « الانسان هو مجموع حظوظه السيئة ، وكلما اعتقدت ان الحظ السيء سيصاب بالتعب ، اكتشفت ان الزمن هو حظك السيء » .

ومع هذا فان فوكنر لا يتوقف عن الكتابة بعد « الصخب والعنف » كما ان جويس ايضاً لا يتوقف عن الكتابة بعد « Ulysses » ، فالانسان ينهضُ من جديد

ويتجدد الصراع ، وتصبحُ المحاولة الأخيرة ليست أخيرة بل شهادة عن فترة معينة من حياة العصر . شهادة مهمة .

لقد كانت « ماتبقى لكم » يوم الحساب الفلسطيني . قبلها حاول غسان تصوير الحقيقة الفلسطينية مرات عديدة ، وكانت أهم محاولاته هي « رجال في الشمس » ولكنها كانت محاولة ناقصة ،فيها صور وضع الفلسطينيين الذين لم يتغيروا منذ ١٩٤٧ ، والذين كانوا لقمة سائغة للمصادفات والموت المجاني . قوة القصة الفنية انها اثارت تساؤلاً عن وضع بقية الفلسطينيين ، أولئك الذين تركوا المخيمات وعملوا في المدن ، أولئك الذين انتسبوا الى الجامعات وحصلوا على الثقافة والكفاءة العلمية ، اولئك الذين سافروا الى بلاد الخليج وحصلوا على الثروة والنفوذ ، اولئك الذين انخرطوا في الاحزاب السياسية فخاضوا كل مغامرات السياسة العربية. في يوم الحساب

تمزق الزمن الفلسطيني لأن الفلسطيني يستطيع ان يكون أي شيء يريده إلا ان يكون فلسطينياً . مأساة « الصخب والعنف » هي ان كل شيء يحدث في الماضي ، فالإنسان فقد الحاضر والمستقبل ، مأساة الفلسطيني انه يعيشُ في المستقبل الذي هو « الماضي مُزوّراً » ، ولهذا فهو يعيش تحت وطأة الاحساس بانه سيفقد كل ما عنده في لحظةٍ واحدة . ١٩٤٨ هي السنة المقبلة .

* * *

بعد شهورٍ قليلة حدثني غسان عن اليوم الذي فقَد فيه الفلسطيني القدرة على الكتابة .

أبداً لم يكن هناك يوم اختلفت بدايته عن نهايته كذلك اليوم . ابتدأ اليوم بالحرب والأمل والأهازيج في مخيمات اللاجئين ، وكان غسان مع مجموعة من

الصحافيين في مقر الجريدة يستمعون الى البلاغات العسكرية . ابتدأت البلاغات العسكرية بأخبار جيدة ، وعندما استمرت في تقديم الأخبار الجيدة بالاسلوب نفسه وعلى وتيرةٍ واحدة ، اخذ غسان يشعرُ بجفافٍ في حلقه . ترك الاصدقاء وصعد الى غرفته وانزوى مع نفسه . بعد الظهر اتصلَ بالهاتف باستاذٍ للعلوم السياسية يثقُ برأيه ، فجاء صوت ذلك الاستاذ حاداً وغاضباً : « لقد خسرنا الحرب » . تحامل غسان على نفسه وراح يستمعُ الى البلاغات العسكرية مرةً اخرى : فوجدها ما زالت تنقلُ اخباراً جيدة بالأسلوب نفسه والوتيرة نفسها ، فصعد مرة اخرى الى غرفته ، واتصل بأحد الملحقين العسكريين العرب ، فأجابه بصوت هادىء مسرور : « كل شيء يسير وفق الخطة العظيمة ، يا غسان ، سيحتفظ التاريخ لهذا اليوم بصفحة من ذهب » .

انتهى ذلك اليوم وغسان وحيد في غرفته يحاول ان يكتب المقال الافتتاحي ليقرأه الناس صباح ٦ حزيران ١٩٦٧ .

لاول مرة فى حياته يفقد القدرة على الكتابة .

في غرفة غسان مكتبة صغيرة ، من بين كتبها مجلدٌ انيق أهداه له احد الاصدقاء . في ذلك المجلد خمسة كتب : موت سرير رقم ١٢ ، عالم ليس لنا ، رجال في الشمس ، ارض البرتقال الحزين ، ما تبقى لكم . أمامه على الطاولة التي يكتبُ عليها قلم من ذهب ، ارسله اليه عامل فلسطيني من كندا . لقد ترك ذلك العامل حيفا عام ١٩٦٤ ليعمل دهاناً في مدينة « فانكوفر » ، وبعد ان حصل على مُرتّبه الأول اشترى قلماً له غطاء من ذهب وأرسله بالبريد الى غسان في بيروت . كان لا يعرف غسان ولم يزر بيروت في حياته . كان قد قرأ « رجال في الشمس » !

ربما يكون غسان قد أمسك بالقلم وقلّب في صفحات المجلد الأنيق ، فرأى دماء القط على الرصيف مرةً اخرى ، وتطلع الى قلب خزان الماء الفارغ ، وربما تساءل : هل يكتبُ الكاتب بذكرى الماضي ام انه يكتب بذكرى المستقبل .

أنا لا أعرف اذا كان غسان قد أمسك بالقلم وقلّبَ في صفحات المجلد ، فهو لم يحدثني عن ذلك ، وأنا لم أسأله . الذي اعرفه هو ما قاله لي : « عندما لم يعد هناك مجال ، واخذت المطبعة تلح في طلب الافتتاحية ، كتبتُ مقالاً لم أقل فيه أي شيء » .

- ٨ -

كان أول لقاء لي بغسان بعد عودتي من الولايات المتحدة في آب ١٩٦٧ ببيروت . كانت احاديثنا كلها عن الحرب والأخبار ولم نتطرق الى أي حديثٍ عن كتاباته . كانت تلك هي المرة الوحيدة التي أجتمع فيها بغسان ولا نتحدث عن الأدب ، فاخبار المقاومة في آب ١٩٦٧ كانت مازالت أخباراً صغيرة .

كان لقاؤنا الثاني في شباط ١٩٦٨ . كنتُ في القاهرة منتسباً الى دورة مهنية في معهد الابحاث والإحصاء ، وكان غسان وبلال قد حضرا للاشتراك في مؤتمر الصحافيين العرب السنوي. أمضينا اسبوعاً كاملاً سويةً ، في كل يوم كنا نتناول طعام الغداء سويةً ، وفي

المساء نجتمعُ حتى الساعات المبكرة من الصباح . كانت أحاديث رابطة «الأدب والحياة» تدور حول عضو الرابطة الرابع أحمد خليفة. كان أحمد قد اعتقل في القدس قبل أسابيع بتهمة الانتساب الى الجبهة الشعبية ، وكان غسان يصرُ على ان هذا الاعتقال سيقود احمد للكتابة عن الأشياء التي كان من المفترض ان يكتبها طوال السنوات الماضية ولم يفعل .

كان غسان كعادته مرحاً ونشيطاً ومستعداً لأن يناقش في أي شيء .في إحدى الليالي خاض نقاشاً مطولاً مع مجموعة الصحافيين حول شعر المقاومة في الأرض المحتلة . كان يصرُ على ان قيمة هذا الشعر الحقيقية ليست الناحية الوطنية او السياسية كما يصرون . ولكن الناحية الفنية ، كان يعتقد ان شعر المقاومة سجل تقدماً فنياً على الشعر العربي بشكلٍ عام . كعادته كانت الأحاديث الجدية تتغذى بأحاديثه المرحة ، كان الضحك

بالنسبة إليه نشاطاً يزاوله دوماً كما يزاول الكتابة والتفكير , كان وبلال عضوين في الوفد الفلسطيني ، وكانا متفقين على انهما يمثلان وفد الجبهة الشعبية ضمن الوفد الفلسطيني ، وان رئاسة ذلك الوفد يجب ان تتداول بينهما بشكلٍ يومي ، ولهذا كان الواحد منهما يأخذ بمراقبة ساعته قبل منتصف الليل بقليل وهو يصغي الى حديث الآخر ، وفي الساعة الثانية عشرة كان يقول للآخر ، انتهت مدة رئاستك ، عليك ان تسكت وتستمع إلي الآن .

في رابع يوم من أيام المؤتمر ، اتصل بلال بالتلفون قبل الغداء وطلبَ مني ان أحضر فوراً الى الفندق ، وهناك فهمتُ منه ان غسان قد اصيب بنوبة حادة من نوبات مرض السكّري في الصباح وهم في الطريق لحضور جلسات المؤتمر ، وأنه قد اغمي عليه في الشارع . ذهبتُ الى غرفته فوجدتُ الدكتور يفحصه للمرة الثانية ، كان

وجهه شاحباً واعراض التعب والانهاك واضحة .

عندما انتهى الدكتور من فحوصاته راح يشرحُ لغسان ما عليه ان يأخــذه من الأدوية وفتــرة الراحــة التامــة والضرورية ، فالتفت غسان نحـوي وطلـب سيكارة ، فانتفض الدكتور غاضباً وأخذ السيكارة من يدي وقال له « التدخين ممنوع منعاً باتاً » فتطلع اليه غســان وقــال : « يا دكتور ، هذه ليست هي المرة الأولى التي اصاب فيها بمثل هذه الحالة ، في المرات السابقة كان الدكتور يحقنني بابرة واحدة ، لقد سمحـتُ لك بابرتـين ، فاسمـح لي بسيكارة ، الدنيا أخذ وعطاء ! » ابتسم الدكتور بالرغم عنه واعطاه السيكارة .

خرجتُ مع الدكتور لأسأله عن صحة غسان ، فأكد لي انه بحاجة للراحـة التامـة ، وان كل اصدقائـه فهـم ذلك ، فقلبه متعب بفعلِ السهـر الدائـم وعـدم تقيده بالنظام الصحي الذي يقتضيه مرض السكري .

حاولتُ ان اترك غسان ليستريح ولكنه ابقاني معه أكثر من ساعة ، ولم يدعني اترك إلا بعد ان اكدتُ له أنـي مرتبط بموعدٍ ووعـدتُ ان اعـودُ في المسـاء ، في المسـاء وجدت مجموعة من الصحافيين في غرفته ، فنقلت لهم ما قاله الدكتور بشكلٍ حرفي فأخذوا يتركونه ليستريح وينام وعندها هممت بمغادرة الغرفة مع آخـر زائـر استوقفنـي غسان لأنه يريد مني ان أشتـري له بعض الحـاجيات ، فترك الزائر فسألت غسان عن الحـاجيات التـي يريدهـا فقال : اجلس ! فجلستُ وتحدثنا حتى ساعة متأخرة من الليل . كلّ ما استطعتُ تنفيذه من تعليمات الطبيب هي اني لم اسمح له بتدخين أكثر من اربع سكائر . وبعـد يومين عاد الى بيروت .

بعد شهرين عادَ الى القاهرة مرةً اخرى للاشتـراك في المؤتمر السنوي للأدباء العرب .

في ليلة المؤتمر الأولى سهرنـا مع استـاذي في المدرسـة

الثانـوية « ابـو سلمـى » واستمعـتُ لهما بشـــغف وهما يتناقلان قصص بعض الأدباء . وفي اليوم التالي حضرتُ معه بعض جلسات المؤتمر ، ثم ذهبنـا الى جامعـة عـين شمس حيث القى محاضرةً عن المقاومة الفلسطينية . في ذلك المساء وبعد حديثٍ طويل عن المقاومة ونحنُ نتمشى على ضفاف النيل توقف فجأةً وسألني :

- هل تتفـق مع بلال ، بأنـي لم أكتـب شيئاً بعـد « رجال في الشـمس » ؟ تجنبـتُ الإجابـة المبـاشرة عن سؤاله ، ورحتُ احدثه عن وجهة نظري في « ما تبقـى لكم » ، كيف اني فشلتُ في قراءتها في البداية ، وكيف انني افهمها الان من زاوية انها عمـل ادبـي كتـب عام ١٩٦٦ وانها سواءً كانت جيدة ام سيئة فهي شهـادة عن ذلك الوقت المعين . ثم اخذتُ أحدثه عما سمعتـه من بعض الأدباء في المؤتمر ، فلقد أكد لي أكثر من واحد منهم بان غسان يبدد موهبتـه الفنية ، وانـه لايخصّص وقتـه

للكتابة ، فقد قال لي احدهم « هناك مئات الشبان الذين يعملون في المقاومة بالحقل السياسي ، ولكن هناك غسان كنفاني واحد يستطيعُ ان يكتب قصصاً فلسطينية » . كما أن كاتباً اخر قال بشكلٍ أكثر صراحةً : « غسان كنفاني رئيس تحـرير جريدة يومية ، غســان كنفانــي في قيادة المقاومة ، غسان كنفاني يكتب قصصاً قصيرة ، غسـان كنفاني يكتبُ قصصاً طويلة . غسان كنفاني يشتـركُ في الاجتماعات السرية للمقاومة ، غسان كنفاني يخطـبُ في الاجتماعات العلنية للمقاومـة ، غسـان كنفانـي يَكتـبُ دراسات أدبية نقدية ، غسان كنفانـي يكتـبُ دراسـات سياسية ، وأنــا لا أعــرف ما الــذي يكتبــه بالاسماء المستعارة ، وأنا . . . » استوقفني غسان وقال : « هذا هو رأي الآخرين ، ما رأيك أنت ؟ » .

قلتُ له دون ان أنظر اليه : « انا اتفقُ مع بلال ، ما زالت « رجال في الشمس » ، أفضل ما كتبته » .

انتظرَ حتى عدتُ أنظر اليه وقال : « عندما تحضر الى بيروت ، سترى ما الذي اكتبه الآن ! » .

* * *

لم التقِ بغسان الا بعد سنتين ، في منتصف آب ١٩٧٠ . كنت قد توقفتُ في بيروت لمدة اسبوع قبل سفري الى كندا للتحضير لشهادة الدكتوراه ، وكانت زوجته وأولاده في زيارة لاهلها في الدانمارك ، فأصر علي ان اقيم معه في البيت . كنا نذهب في الصباح الى دار « الهدف » التي كان رئيساً لتحريرها ، وفي المساء كنا نلتقي ببلال وأحمد الذي كان قد أُفرج عنه من سجون اسرائيل قبل أسابيع .

كانت احاديثنا عن الذكريات الماضية ، وعن آفاق المستقبل ، ولكنها كانت تبتعدُ عن جو السياسة المباشر فبعد عناء يومٍ كامل كان غسان يريدُ ان يعطي نفسه

حرية الحديث الحر غير المقيد ، وكان ذلك يبدو معقولاً ومريحاً فلقد كان الانشقاق في الجبهة جديداً وكان بلال قد اخذ جانب الجبهة الديمقراطية ، بينما اتخذ غسان جانب الجبهة الشعبية .

مساء السبت اقترح عليّ غسان أن نمضي يوم الأحد في نزهة بالجبل ، فلقد كان بحاجة الى الراحة ، ويعتقدُ أنه لن يحصل على يومٍ آخر لمدةٍ طويلة فلقد كان متأكداً ان الصدام بين المقاومة والنظام الأردني سيتخذ طوراً حاداً في الأيام والأسابيع الآتية . ذهبتُ وإياه وصديقين الى الجبل وامضينا طيلة اليوم ، وعندما عدنا في المساء جلسنا في بهو البيت وحيدين فسألته :

- « اين هي الكتابات التي تريدني ان اقرأها ؟ » .

ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال بالانكليزية ما معناه : « كنتُ اعتقد انك لن تسأل هذا السؤال ابداً ! » .

ترك الى غرفة مجاورة وعاد بعد دقائق ومعه مخطوطة

« عائداً الى حيفا » ، وقال « اقرأها وسنتحدث عنها في الصباح » وذهب الى غرفته لينام .

بين لقائنا في القاهرة ولقائنا في بيروت كان غسان قد نشر « ام سعد » ، فقرأتها وأُعجبت بها . انها لم تكن القصة الثانية التي انتظرتها بعد « رجال في الشمس » ولكنها كانت القصة التي اعادتني الى اجواء الانتظار بعد خيبة الأمل التي واجهتني في قراءة « ما تبقى لكم » .

بعد « رجال في الشمس » كنتُ انتظر القصة الثانية لان المثقف الفلسطيني كان غائباً عن القصة وكان غائباً عن كل ما كتبه غسان قبلها .

في « ما تبقى لكم » أطل هذا « المثقف » برأسه في الصفحة الأولى وقبل ان تبدأ القصة . اطل ليوضح لنا التكنيك الفني للقصة ، يشرح لنا كيف يتحرك ابطالها بخطوط متقاطعة تبدو كأنها متوازية ، ويشرحُ لنا كيف

تتغير احجام الحروف وكيف يلتحم الزمان والمكان وكيف .... ! وعندما قرأنا القصة ضاع هذا « المثقف » مع الخطوط والحروف . وفي الزمان والمكان ولم نعثر له على أثر . لقد اكدت القصة ان المثقف الفلسطيني يستطيعُ ان يكتب القصة ، ويستطيعُ ان يستخدم احدث الاساليب الفنية للكتابة ، ولكنه في الواقع يعيشُ بلا قصة .

في « ام سعد » أطل المثقف الفلسطيني مرةً اخرى ليقدم للقصة ، ويحدد ارتباطه بالقصة وابطالها ، ومع انه لم يشارك في أحداث القصة إلا انه كان موجوداً فيها ، فالقصة كانت تصور الفلسطينيين قبل ١٩٤٨ وبعد ١٩٦٧ وتمهدُ الأرضية الصلبة التي سيتحرك فيها المثقف في المستقبل ، كان في القصة عمقٌ فنيٌ يعد ويقترح ويجعلك تنتظر .

قرأتُ « عائد الى حيفا » بسرعة فهي من نسج

« رجال في الشمس » و« أم سعد » وما انتهيتُ منها حتى كنتُ قد فقدتُ القدرة على الانتظار فنظرت الى الغرفة التي اتى منها غسان بالمخطوطة ، كان بابها مفتوحاً ، دخلتُ ورحتُ اقلب باوراق غسان ، حتى عثرت على مخطوطة غير كاملة (ستنشر فيما بعد غير كاملة بعنوان : برقوق نيسان) .

منذ السطور الاولى لـ« برقوق نيسان » تملكني ذلك الشعور الهائل بالابتعاد عن المكان الذي أنا فيه والاقتراب من الوطن ، كانت بداية القصة الثانية .

تركَ « المثقف الفلسطيني » مقدمات الصفحات الأولى ودخل في قلب الأحداث . ها هو الفلسطيني الحزبي يفكرُ ويتأمّل ، ها هو الفلسطيني الملتزم يضحك ويخسر . لقد أصبح للفلسطينيين اسماء ، وها هي حياتنا في العشرين سنة الماضية تعودُ لنا . هزيمة حزيران لن تأخذ منا كل شيء !

في « القصة الثانية » اعتمد غسان اسلوباً لم اره من قبل في أية قصةٍ قرأتها ، سواءً بالعربية او الانكليزية . لقد استعمل الحواشي ليشرح خلفيات ابطال القصة واحداثها . في بعض الصفحات كانت الحواشي تأخذ مساحةً أكبر من مساحة سردِ القصة نفسها . ما زالت خلفيات الأحداث أكبر منها ، ما زال الماضي اكبر من الحاضر ، الذي يعيشُ في الأعماق ما زال اكبر من الذي يظهرُ على السطح ، ومع هذا فان الذي يظهرُ الآن حقيقي وأكيد . حقيقي وأكيد .

خرجتُ الى الشرفة ومع هدوء الليل وبرودة الصباح الآتي المنعشة ، اخذت أستعيد ذكريات السنوات الماضية .

في ذات يوم قلتُ لغسان مازحاً « لو لم تحدث نكبة فلسطين ، فاني أتصوركَ تعمل في عكا دليلاً للسياح ،

تحدثهم عن الجزّار وخيبة نابليون » فضحك وقال :
« تقصد انني كنتُ اكتب القصص من عكا وليس من بيروت » وكان ذلك أكيداً وحقيقياً ، فغسان تعامل مع الحياة دوماً من زاوية واحدة ، من موقعٍ واحد ، من عالم القصص . لقد فهم رموز الكلمات قبل ان يفهم معانيها فراح يرسمُ القصص لوحات ملونة وهو طفل . وفي شبابه كان دوماً يدور حول القصة ، كان يقفُ وراءها وكان يقفُ امامها ، وكان يأخذها الى كل الجوانب الممكنة ، وفي الزمن الذي لم تكن به قصة ، كان يتنبأ بها . وكان يتحركُ بسرعة حتى تصبح رؤيته صعبة ، فنلومه على طريقة حياته ، ونؤكد له انه يضيع وقته ويبدد موهبته . أبداً لم يخطر ببالنا ان طريقته في الحياة ستعطي حياتنا المعنى في النهاية . فطريقته كانت الطريقة الوحيدة الممكنة .

كان أول من ترك المدرسة الثانوية بعد الشهادة

المتوسطة ، وعمل مدرساً في مدارس الإغاثة ، فلقد كان ذلك العمل الوحيد الممكن للفلسطينيين يومها .

كان أول من ترك دمشق الى الكويت وعمل مدرساً هناك ، فلقد كان ذلك هو السفر الوحيد الممكن للفلسطينيين يومها .

كان اول من ترك الكويت وحضر الى بيروت ليشارك في تحرير مجلة « الحرية » ، فلقد كانت تلك هي المشاركة الوحيدة الممكنة للفلسطينيين يومها .

كان أول من ترك عمله العادي الناجح ليلتحق بالمقاومة ، فلقد كان الكاتب الوحيد الذي يعرف ان « المسألة مسألة وقت ليس غير ،كذلك تبدأ القصص وكذلك تنتهي » .

ايقظني غسان في الصباح بعد نوم ساعتين فقط ، وتناولنا طعام الفطور في مطعم قرب « الهدف » . لم

يسألني عن رأيي بـ« عائد الى حيفا » . بعد الظهر أوصلني بسيارته الى المطار لأخذ الطائرة الى الكويت حيث كنتُ أنوي أن أمضي اسبوعاً هناك ، اعود بعده الى بيروت لاسافر منها لكندا .

في الطريق الى المطار قال : « ما رأيك بالقصة ؟ » فابتسمت وقلتُ له بالإنكليزية « كنتُ اعتقد انك لن تسأل هذا السؤال أبداً » ، ثم قلت له : « الآن اصبح من الممكن كتابة القصص اليس كذلك ؟ » فابتسم وقال : « ولكن ذلك يبدو الآن غير مهم ! اليس كذلك ؟ » لم يكن هناك داعٍ لان نضيف أي شيء آخر على ما قلناه .

* * *

عندما عدتُ الى بيروت كان الصدام بين المقاومة والنظام الاردني قد اشتعل ، وفور وصولي ذهبت الى

« الهـدف » فوجدتهـا تغص بالمراسلـين الأجانـب والكاميرات وفهمتُ انهم يعـدون لمقابلـة تلفـزيونية مع غسان ، سألت عنه فأشاروا الى الشرفة ، وهناك وجدته مستلقياً على كنبة وعلى وجهه علامات الإعياء والمرض ، نهض وصافحني وسألني عن رحلتي ، ثم أخذ يحدثنـي عما جرى في الأيام الماضية وعلامـات التعـب تتـوارى وتختفي ، وبعد دقائق كان يتكلمُ كعادته . يتحدث عن أخطر الموضوعات ثم ينفجرُ ضاحـكاً وقـد حبكت معـه النكتة .

حضر المراسل الاميركي الى الشرفة وقال : « يا غسان لا أريدُ ان اقطع حديثك مع صديقك ، ولكن علينا ان نبدأ التصوير فوراً ، كل شيء جاهـز! » ذهبتُ معـه الى غرفة الأضـواء والكامـيرات ووقفـتُ الى جانـب البـاب اراقبُ غسـان يرد على اسئلـة الصحـافيين بالانكليزية . عند انتهاء المقابلة سألني عن معنى كلمة انكليزية معينة

ولما اجبته قال ان هذا ما اعتقدته ولكن الأخ هنا (واشار الى احد المراسلين الاميركيين » يستعملُ الكلمة خطأً . انفجرنا بالضحك حتى سأله المراسل عن سبب الضحك فقال : لا شيء ، لا شيء .

عدنا الى الشرفة وتحدثنا طويلاً عن احتمالات الموقف في عمان ، وعندما نهضتُ لأودّعه ، نظر الى ساعته وقال : « لماذا لا تبقى معي ، بعد ساعتين سأنتهي من العمل ، وعندها اوصلك الى المطار » فاعتذرتُ له بأني أودّ رؤية بلال واحمد ، وعندها اصر على الحضور الى الفندق ليوصلني الى المطار فقلت له : « الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل ، أنتَ تعب وأنا تعب ، دعني أودعك هنا » فاعترض وقال : ـ مش معقول ، بعد ساعتين ساحضر للأوتيل ، ومنها اوصلك للمطار ، ونتناول هناك طعام الافطار قبل اقلاع الطائرة .

كانت تلك آخرة مرة رأيته فيها .

كان فلسطينياً ، وكان يعتقدُ انه يستطيع التعبـير عن نفسه بالكتابة أكثر من الرسم .

- ٩ -

« Now is the winter of our discontent » .

shakespeare

في مطار « كالفري » بالغرب الكندي ، وجدتُ باسل بانتظاري محاطاً بالاصدقاء وعلى راديو الترانزستور . في الطريق الى المدينة ، وفي الأيام التالية ، كان يمطرني بالأسئلة المتتابعة عما يدور في الوطن . كنتُ اجيب على اسئلته بما سمعته في بيروت وما قرأته في صحف لندن ، وكان يبحث عن اجاباتٍ اخرى .

كان باسل يكتب اطروحة الدكتوراه في العلوم السياسية بالجامعة الاميركية بواشنطن ، ولانه كان في المرحلةِ الاخيرة ، فلقد حضر الى جامعة « كالفري »

ليُعلم في كلية العلوم السياسية ، وينهي كتابة الاطروحة ، وعن طريقه وبمساعدته حضرتُ لكندا للتحضير لشهادة الدكتوراه في الاقتصاد .

بعد ثلاثة ايام من وصولي ابتدأت الدراسة في الجامعة ، وبنفس الوقت انفجر الصدام الدموي بين المقاومة وقوات النظام الاردني . كنا نذهب الى الجامعة في الصباح الباكر وعند اول فرصة كنا نتحلق حول باسل وراديو الترانزستور الذي لا يفارقه في نادي الجامعة ، وفي المساء كنا نجتمعُ في بيته حول شاشة التلفزيون .

ثم مات عبد الناصر .

مات حلمُ اول الأمس ، وعمان تذبح حلم الأمس والاخبار تغوصُ في اعماقنا كالسكين ، والايام تمرُ بطيئة قاسيةً حتى أخذ ذلك الشهر اسمه الاسود .

بعدها أصبح باسل صعباً . في البداية كان متضايقاً

وحانقاً على نفسه ، كيف يسمـحُ لنفســه ان يكون هنـا بعيداً ، والرفـاق يذبحـون في عمان . وبعـد ذلك كان لا يفهمُ كيف يتمُ قتل الاف الناس وليس بينهـم اســم لقائد معروف . ثم أخذ يسأل الاسئلة الاخرى ! وبعد ايام كنتُ اتحدث مع نادرة فقالـت لي ان الاحـداث قد اثرت على باسل بشكلٍ لم تعهده من قبـل ، حتـى في اقسى ايام الاضطرابات والسجون في العراق . ثم روت لي أنه جاء لها بالأمس وقال : « طوال حياتي في العمل السياسي وأنا اتحركُ بدافع الايمان ، أما الآن فلقد تعلمتُ الحقد » .

لم أفهم معنى « الحقد » الذي تعلمه باسل يومها ، ومع الايام فهمتُ تماماً ذلك المعنى .

* * *

كان باسل من اسرة عراقية موفورة الحال . أبـداً لم يذق شظف العيش ، وعلى العكس كان يعيش في مناخٍ

كله امتيازات . امتياز الانتساب للمدارس الاجنبية ذات الاقساط العالية ، امتياز متابعة التعليم الجامعي في البلاد الأجنبية ، امتياز متابعة التعليم العالي حتى بعد أن اصبح زوجاً ورباً لعائلة. كل ذلك يشير الى ان انخراطه في العمل السياسي كان نتيجة قناعة فكرية ، وحياته كمناضل كانت حياة مثقف قادته الثقافة الى الالتزام .

في الواقع كان « ايمان » باسل أبعد ما يكون عن ذلك . أبداً لم يكن ايماناً فكرياً ،وقناعته أبداً لم تكن ثقافية . القومية العربية ، الوحدة العربية ، والنضال ضد الاستعمار والصهيونية ، كان احساساً يعيشُ في عقله وقلبه منذ وعى الحياة وكل ما قرأه وما تعلمه في الحياة الجامعية والحزبية لم تضف شيئاً إلى هذا الاحساس .

لقد دهشتُ عندما تعرفت إليه بشكلٍ جيد من الحماس الذي يبديه عندما يتحدث عن اساليب العمل

الثوري . كانت معلوماتـه عن الموضـوع هائلـة ، كان يعـرف أدق التفـاصيل عن الحـرب الجزائــرية وحــرب الفيتنام . كان يقرأ كل ما له علاقـة بالموضـوع بشـكل دائم ، وفي الوقت نفسه كان اهتمامه بدراسة النظـريات السياسية اهتماماً عادياً جداً . فالثقافة بالنسبة اليه كانت فقط لفهم اساليب العلم ، أما الايديولوجية فلقد كانت تعيشُ معـه بشـكل غريزي ولا يحتـاج للبحـث عنهـا في الكتب .

كان ايمانه غريزياً وأكبـر منـه ، وأكبر من ثقافتـه ، ويعيش في تلك المنطقة الصغيرة الكبيرة التي تتحرك فيها روحه وترسم مصيره وقدره .

هـذا « الايمـان » لايُفسر . انــه يُفسر كل الامــور الاخرى .

انه يفسرُ لنا لماذا فهم باسل العمل الحزبي على انه غاية

وليس وسيلة . لقد انضم الى حركة القوميين العرب وهو شاب صغير في الجامعة الاميركية ببيروت ، وكما يأخذ الطفل اسمه عندما يولد ، اخذ باسل انتماءه ، ولان الانسان لايترك اسمه ، فان باسل لم يترك حركة القوميين العرب .

سألته ذات يوم ، بعد ان حدثني حديثاً طويلاً عن خلافه مع قيادة التنظيم في العراق ، لماذا لم يترك الحركة ؟ فلم يفهم سؤالي ، وبعد أن وضحتُ له السؤال ، الذي ليس بحاجةٍ لايضاح ، اجاب ببراءة الاطفال : « وكيف اترك ؟ » . لم يخطر على باله ابداً ، انه من الامكانيات المتاحة في عالمنا العربي للحزبي ان يترك الحزب !

ثم خطرت لي فكرة معينة ، فأخذتُ اسأله عن الأشخاص الذين اختلف معهم . فراح يتحدث عنهم ، وكان شعوره بخيبة الامل تجاههم هي تماماً

كشعور الانسان بخيبة الامل تجاه نفسه ، الشعور نحو الأشياء التي لم يستطع تحقيقها في الماضي ، والتي لا تمنعه من الامل بتحقيقها في المستقبل . كان لايكره اولئك الاشخاص ، وكان يعتقدُ انه سيحبهم في المستقبل ، ولم يكن يملك اية فكرة عن ذلك المستقبل بدونهم . تأكدتُ من صحة فكرتي .

كان من العناصر المؤسسة لتنظيم حركة القوميين العرب في العراق ، وعندما اختلف مع قيادة التنظيم هناك عام ١٩٦٥ تركَ ليعمل في مجالٍ آخر من مجالات الحركة . مجال العمل الطلابي في الولايات المتحدة . ليلة سفرِه من بغداد كان بحكم موقعه القيادي يجتمعُ مع رئيس الجمهورية ، وبعد ايام كان بحكم موقعه الجديد ينهمكُ مع الطلبة لطباعة المناشير واعداد المقاعد للمحاضرة القادمة ، وتنظيف الغرفة بعد انتهاء المحاضرة . شعوره الشخصي تجاه العمل على اعلى

المستويات كان نفس شعوره تجاه العمل على المستويات العادية . كان يدركُ بالغريزة ان الامال الكبرى للنضال السياسي تتحقق في الخلية الحزبية التي يعملُ معها . وعندما يكون عمل تلك الخلية ضعيفاً كان تحقيق الامال الكبرى مستحيلاً . الحزبي انسانٌ لايؤمن بالمعجزات .

ايمان باسل يفسرُ لنا ايضاً لماذا لم يستطع ان يفهم او يتعايش مع التحليل السياسي الذي تكرس في حركة القوميين العرب بعد هزيمة ١٩٦٧ والذي انتقد الحركة على انها تمثل ايديولوجية « البرجوازية الصغيرة »وطرح ضرورة التحول الى مناخ « الماركسية اللينينيه » . كان يصر على ان الخط السياسي للحركة القومية قبل ١٩٦٧ كان خطأً سلبياً . وان الهزيمة قد حلتْ لان قيادات العمل الوطني قد عجزت عن متابعة ذلك الطريق حتى النهاية .

الهزيمة كانت نتيجةً ضعف « القيادة » وليس ضعف

« الايديولـوجية » المسـؤولية تقـع على « الاشخـاص » وليس على « الافكار » .

تناقشتُ معه مطولاً حول ذلك الموضوع ، فلقد كنتُ اختلف معه، واعتقد ان تصرفات الاشخاص محكومة دوماً بأفقهم الايديولوجي ، ولكني ادركتُ بعد فترة انـه من المستحيل حسم ذلك النقاش ، فالافق الذي يفـكرُ فيه كان مختلفاً عن الأفق الذي نفكرُ فيه والذي كرسَ التحليل السياسي في الحــركة . بغض النظــر عن منطــق ذلك التحليل وشرعيته التاريخية ، فما لاشك فيه انه تكرس في مناخ ثقافي . لقد كنا مثقفين مثاليين ونفهمُ الخط السياسي باعتباره مثلاً اعلى ، وعندمـا رأينـا الهزيمـة تحطـم ذلك المثل ، هرعنا باتجاه الافكار المتطرفة . لقـد كنـا نتعلـق بالمثل الاعلى لاننا نؤمن بحتمية التقدم ،وبأننـا نقف الى جانب التاريخ ، وفي الهزيمة كان علينا ان نعترف بأننا كنا نقف في الجانب الخاطىء والمعاكس للتاريخ ، كان علينا

ان نبحث عن طريق التاريخ مرة اخرى .

الافق السياسي لباسل ولكثيرٍ من المناضلين العرب كان مختلفاً ، فالخط السياسي بالنسبة إليه كان دليلاً للعمل وليس مثلاً أعلى ، تحرير الوطن العربي من الاستعمار والصهيونية واقامة الوحدة العربية ، لم تكن بالنسبة إليه حتمية تاريخية . كان يدركُ بالغريزة ان التاريخ محايد ، وانه ليس هناك مانعٌ تاريخي لان يبقى العرب مجزئين ضعفاء تحت وطأة الاستعمار والصهيونية ابد الدهر . « التحرر والوحدة » كانت بالنسبة له اختياراً عربياً ، وشعور الرضى والحرية والسلام الذي كان يحركه لم يكن الشعور بانه يقفُ الى جانب التاريخ ، كان الشعور الأكيد بقدرته على اعطاء كل ما عنده ، ووضع حياته في الشارع في أي لحظة ليستمر في درب ذلك الاختيار .

بالطبع سيكون من الخطأ المفاضله بين هذين

الافقــين ، فكلاهما موجــود في أي حركة سياسية ، والمناضل نفسه لا يملك حرية تفضيل واحد على الآخر ، فطبيعته الشخصية تحدد افقه السياسي . المهم هو التأكيد على ان باسل كان من النوع الثاني . ويبدو ان احداث « ايلول الاسود » قد قتلتْ شيئاً ما في نفسه . لقد كان منسجماً مع نفسه لانه يعرف انه يستـطيع ان يبـذل كل جهده ، ويعطي كل ما عنده في أي يوم . الآن جاء اليوم الغريب . جاء اليوم الـذي تدركُ فيه ان اعطـاء كل ما عندك لن يكون كافياً .

ومع هذا فبعد ايام قليلة استعاد باسل هدوءه ناسياً ما تعلمه من « الحقد » واخذ يعملُ بشكلٍ جدي على انهاء الاطروحة ، وارسل رسالـة لجـورج حبش يطلـب منـه بعض المعلومات اللازمة للبحث ، ويؤكد له انه سيكون الى جانبه بعد شهور قليلة .

استغربتُ هدوء باسل المفاجىء ، حتى جاءت الليلة

التي ادركتُ فيها انه اتخذ قراراً بينه وبين نفسه ، وان هذا القرار قد اعاد له شعور الرضى والحرية والسـلام . وان الرحلة قد ابتدأت .

كانت تلك الليلة بعد اسابيع من عودتـه الى العمـل المنظم في كتابة الاطروحة ، وكنتُ مع اسعد عبد الرحمن وهاني فارس قد ذهبنا الى بيته لمشاهدة برنامج تلفزيوني اعدته احدى الشركات الاميركية عن معركة عمان .

عائلة باسل كانت مؤلفة يومها من ابنه أحمد في السابعة من عمره ، التوأمان يعرب وياسر وكانا لم يبلغا بعد عمر السنتين .

كان أحمـد يلعـب مع طفلتـين من اطفـال الجـيران ويداعبهم بالانكليزية الخالية من أي لكنةٍ اجنبية ، والتي تبدو وكأنها لغة اطفال كاليفورنيا . وكان التوأمان يعرب وياسر يحاولان المشاركة في اللعب دون جدوى .

عندمـا ابتـدأ البرنامـج التلفزيونـي بعـرض الخلفية السياسية للصراع بين المقاومة والنظـام الاردنـي، طلبَ باسل من أحمد ان ينتقل مع اخوته واصدقائه الى الغرفة المجاورة ، ولكن احمد اصرًّ على البقاء ووعدَ بان يخفض من صوته وان لا يشوش علينا .

عندما انتقـل البرنامـج لعـرض صور القتـال ولعلـع صوتُ الرصاص، ترك احمد اللعب وهرع الى أمه فجلس في حضنها وأخذ يسألها ان تفسرَ له ما يحدث كان يتكلم الآن بلهجة عراقية حادة والتي تبدو لغير العراقي عندمـا يسمعها على لسان الاطفال العراقيين وكأنها اللهجة التي تحاكُ منها كلمات السر . انتهز التوأمـان يعـرب وياسر الفرصة وراحا يلعبان مع الطفلتين الكنديتين .

بعد قليل ركزت عدسة التلفزيون على مشهد لجنـود الملك وهـم يدفعون مجموعة من الرجال والنساء والاطفال

الفلسطينيين في احد المخيمات ، ثم استقرت الصورة على مشهد طفلة صغيرة تبكي وقد وجدت نفسها في الشارع وحيدةً وقد حالَ الجنود بينها وبين اهلها . اخذ احمد يجهش في البكاء ويصرخ ، فانفجر التوأمان بالبكاء ايضاً وهرعا الى والدهما . عندها ادركتُ ان باسل قد اتخذ قراراً بينه وبين نفسه ، فلقد ابتسم ابتسامة غريبة . اخذ يعرب وياسر لامهم ، وأتى باحمد واجلسه في حضنه واخذ يلومه على بكائه ويذكره بوعده له بان سيكون مناضلاً عندما يكبر ، وان على المناضل ان يكون متمرساً على تحمل الصعاب والاحزان ، ولا يجوز له ان يبكي . اخذ احمد يجفف دموعه ، التوأمان استمرا في البكاء ، فأخذتهما امهما مع الطفلتين الكنديتين الى غرفة مجاورة ، وبعد قليل لحقهم أحمد . عدنا لمشاهدة البرنامج التلفزيوني ما عدا باسل الذي ذهب الى الشباك وراح يتطلع في الثلوج البيضاء في الخارج وعلى وجهه تلك

الابتسامة . بعد قليل تركتُ مشاهدة التلفـزيون ايضـاً وذهبتُ لاتطلع في الدنيا البيضاء واعود واتطلع الى وجه باسل والابتسامة المستوطنه فيه .

كانت ابتسامة لم أرها ابداً على وجه انسان من قبل . وحتى الآن فانا لا اعرف اذا كان أفضل ما في المستقبل هو أن أراها مرةً أخرى ، او إذا كان أفضل ما في المستقبل هو أن لا أرها على الاطلاق . كانت ابتسامة غريبة .

كانت إبتسامهِ قادّره على إختصارِ ما في هذا الوجود .

- ١٠ -

كتابة اطروحة الدكتوراه في العلوم السياسية في جامعة امـيركية في ظروف عادية ، عملية صعبـة ، مضـنية ومملة ، بالنسبة لتلميذ السياسة الجـاد . يرغـبُ التلميذ الجاد عادة بكتابة الاطروحة لأنه يأمل ان تكون مختلفةً عن الدراسات الجامعية التي كتبها قبلها والتي كانت محكومة بافق المقاييس الاكاديمية الضيقة . بعد ذلك يكون مقدراً عليه ان يكتشف ان ما يميز اطروحة الدكتوراه عن غيرها من الدراسات الجامعية ، هو ضرورة تقيدها بالمقـاييس الاكاديمية ، واراء الاساتـذة ، بشـكلٍ افضـل من كل الدراسات الجامعية التي كتبها قبلها .

بالطبع ، كانت ظروف باسل الدراسية ابعد ما تكون عن الظـروف العـادية . لقـد اشتـرك في اول مظاهـرة

سياسية وهو في الصف الثاني الابتدائي . عندما انهى المدرسة الابتدائية ، ارسله والده مع اخيه الى كلية فيكتوريا في الاسكندرية ليبعده عن جو العراق المضطرب . في الاسكندرية شعر باسل وكأنه اقتُلع من جذوره ووضع في السجن ، فرفض العودة في السنة التالية وتسجل في المدرسة المأمونية في بغداد . في آخر مراحل الدراسة الثانوية اشترك في المظاهرات السياسية وأمضى فترةً في المستشفى مع اخيه الذي اصيبَ بجراحٍ خطيرة . بعد انتهاء المدرسة الثانوية سافر الى لندن ليدرس الهندسة ، وفي الصيف التقى بمجموعة من الشباب حدثته عن اجواء العمل الوطني في الجامعة الاميركية في بيروت ، فترك لندن ، وانتسب للجامعة الاميركية في بيروت ليدرس العلوم السياسية ويلتحق بحركة القوميين العرب .

في السنة الثالثة الجامعية اشترك في مظاهرات حلف

بغداد واصيب في رأسه ، وفي الصيف فصلته الجامعة مع مجموعة من الطلبة ، فانهى دراسته للسنة الرابعة الجامعية في احدى جامعات ولاية « كولورادو » في الولايات المتحدة .

في منتصف الستينات ترك العراق إثر خلاف تنظيمي في الحركة وسافر الى الولايات المتحدة ليحضر لشهادة الماجستير والدكتوراه ويعمل في التنظيم الطلابي للحركة هناك . في حرب حزيران ترك الدراسة وسافر الى الجزائر ليدرس امكانية عودة الطلبة الذين يودون الاشتراك في القتال . وها هو الآن في صيف ١٩٧١ يكتب اطروحة الدكتوراه .

ومع هذا فان مشكلة باسل مع تلك الاطروحة لم تكن مشاكل الطالب الجاد في الظروف العادية ، ولم تكن مشاكل الطالب الجاد في الظروف غير العادية . كانت المشكلة هي موضوع الاطروحة ، والذي هو :

« حركة القوميين العرب » .

كان موضوع الاطروحة يرتكزُ على نقطتين . النقطة الاولى تخص شرح العوامل التاريخية والموضوعية لظهور حركة قومية تعتمد فكرة الوطن العربي الواحد ، والامة العربية الواحدة ، وكانت النقطة الثانية تخصُ شرح العوامل التاريخية والموضوعية لتحول الحركة القومية الى ماركسية لينينية، في الجبهة الشعبية ، والجبهة الديمقراطية ، والجبهة القومية في جنوب اليمن .

بالنسبة للنقطة الاولى ، كان باسل على خلافٍ مع الاستاذ الاميركي المشرف على الاطروحة ، فلقد كان ذلك الاستاذ غير مقتنع أصلاً بالاساس التاريخي لفكرة القومية العربية . بالنسبة للنقطة الثانية كان باسل على خلاف مع التحليلات السياسية التي طُرحت في الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية .

كنتُ اتطلع لباسل وهو في غرفته وحوله وثائق الحركة

وكتبها يحاولُ ان يكتب عنها ، فأتصور غسان كنفاني في غرفةٍ بعيدة في بيروت وحوله « عالم ليس لنا » و« رجال في الشمس » و« ما تبقى لكم » يحاولُ كتابة المقال الافتتاحي ليلة الخامس من حزيران ١٩٦٧ .

ولكن باسل كان قد اتخذ قراراً بينه وبين نفسه ، فتابع الكتابة ، بشكلٍ منتظم ، وبشكل يومي .

* * *

كان صيفاً ثقيلاً بعد شتاء طويل ، كان اكثر الاصدقاء العرب قد عادوا الى الوطن لقضاء الصيف ، وبقيت مع باسل لوحدنا ، نجتمع في الصباح لتناول القهوة ، ونجتمع في الظهر لتناول الغذاء ، وفي المساء نجتمعُ لتناول القهوة . كانت احاديثنا في الصباح وفي الظهر تخص اخبار اليوم أما في المساء فقد كنا نتحدث عن الاشياء الاخرى . كان باسل في المساء يبدو متشوقاً للحديث عن كل الافكار التي اختار ان لايكتبها في

الاطروحة ذلك اليوم . وكان يسألُ دوماً ثم يعيد السؤال حول موضوع واحد :

« لقد جاءت حركة القوميين العرب كردٍ على هزيمة ١٩٤٨ ، وانتهت بفضل هزيمة ١٩٦٧ ، ما هي امكانيات العمل الثوري العربي بعد ١٩٧٠ ؟ هل يمكن للنضال الوطني العربي ان يبقى مؤيداً ومتفرجاً على المقاومة الفلسطينية ؟ » .

كنا نستعيدُ كل ذكريات السنوات الماضية . وكنا نحاول ان نتأمل في كل ما عشناه في الماضي ، ونحاول الخروج بنتيجة منطقية ، وكنا دوماً نعودُ الى حيث ابتدأنا .

كنا نتوقف عند عام ١٩٦٥ وميلاد « فتح » ، وكيف طرحت خطاً سياسياً بدا وكأنه كان مخالفاً لخط الحركة الوطنية ، فبدل النضال من اجل اقامة دولة الوحدة وجيشها القادر على تحرير فلسطين ، دعت فتح للنضال

باسلوب الكفاح الشعبي المسلح ، وبدل رفع الصراع مع الرجعية الى اقصاه ، دعت فتح لتجاوز كل الخلافات السياسية والصراعات الطبقية والتركيز على قتال العدو الواحد . وكان ذلك الخط بحكم طبائع الامور متناقضاً ، فهو من ناحية يدعو لتجاوز الصراع المحتدم في المنطقة وعدم التعرض للأساس التي ترتكز عليها الحكومات العربية ، ومن ناحية ثانية يدعو لاقامة سلطة شعبية للكفاح المسلح ترتكز على اسس مناقضة للاسس التي ترتكزُ عليها الحكومات العربية .

هذا التناقض الذي بدا صارخاً في عالم المنطق النظري (العالم الوحيد الذي لاتتعايش فيه المتناقضات) كان منسجماً مع الواقع الموضوعي للحركة الوطنية . ففشل هذه الحركة في التصدي لاسرائيل عند تحويل مجاري نهر الاردن ولد عند الجماهير حساً بالشك تجاه موضوعة بناء الجيوش والتعرض لاسرائيل ، واخذت ثورة الجزائر

وحرب الفيتنام يشيران بوضوح الى الطريق الآخر . في الوقت نفسه كانت هيمنة اساليب الدعاية الديماغوجية قد نفّرت الجماهير وولد عنها شعوراً عفوياً يبتعدُ عن الصراعات الدائرة في المنطقة . وهكذا كان خط فتح السياسي تعبيراً عن ازمة الحركة الوطنية نفسها . وهذا ما يفسر مجيء قيادة فتح الاولى من وراء الحركة الوطنية ومن امامها، من العناصر التي تخلفت عن مسيرة الحركة الوطنية في الخمسينات لعدم انسجامها مع الخطوات التقدمية للحركة ، ومن العناصر التي تركت الحركة الوطنية في الستينات لعدم انسجامها مع الخطوات التراجعية .

بالطبع كنا نرى في ظروف فتح ظروفاً مشابهة عندما نعود لميلاد حركة القوميين العرب . والتي ابتدأت ايضاً بطرح خط سياسي مناقض للبعث ومتناقض مع نفسه في الوقت نفسه ، فلقد دعت الحركة لتحطيم التجزئة

المكرسة الاوضاع الطبقية ، كما دعت الى تجاوز الصراع الطبقي والاهتمام بالنضال القومي . وكذلك جاءت قيادة الحركة الاولى من وراء « البعث » ومن امامه ، من العناصر التي لم تنسجم مع طرح « البعث » لموضوع الاشتراكية ، ومن العناصر التي كانت تريد وضعاً اكثر ثورية من البعث .

وهكذا يكون تاريخ تأثير النضال الفلسطيني في النضال العربي ، كلما تازم وضع الحركة الوطنية العربية ، جاءت ردود الفعل الفلسطينية بحركة شعبية تحملُ في جذورها ازمة الحركة الوطنية .

وكنا نتساءل عن طريق الخلاص الوطني، وكنا نراجع ظروف الماضي ، وكنا ندقق في امكانيات الحاضر والمستقبل ، وكل ذلك كان يتمُ في المساء بعد يوم متعب ، وكنا نعرف انه يجب ان لا نعطي هذه التأملات اكثر ما تستحقه من الجدية ، فالمهم ان نقضي اليوم

بشكلٍ او بآخر ، وبالنسبة لباسل كانت المسألة مسألة وقت ، كان يريد انهاء الاطروحة وبأي شكل قبل انتهاء الصيف ، حتى يعود الى بيروت مع الخريف ، والشيء الجدي بالنسبة لي هو انني كنتُ اريد ان اعرف لماذا يريد باسل ان يلتحق بالجبهة الشعبية وعنده تحفظات حول خطها السياسي ؟ وعندما اقترب الصيف من نهايته ولم اعثر على جواب ، وضعتُ السؤال امامه بشكلٍ مباشر . فضحك وقال « كنتُ اعرف انك ستسأل هذا السؤال ، قبل نهاية الصيف » تأمل قليلاً ثم قال :

«من ناحية منطقية ، عليك ان تعمل مع التنظيم الذي تتفق وخطه السياسي بشكلٍ كلي . من ناحية عملية هذا غير مهم . المهم ان تعمل مع الناس الذين يشكلون قناعاتهم بانفسهم ، تختلف معهم احياناً ، وتتفق في الاحيان الاخرى ، المهم هناك مرجعٌ للعمل : القناعة الشخصية . قد اختلف مع جورج حبش حول بعض

النقاط ، ولكن المهم هو انني اعرف انه ليس هنـاك من يستطيع فرض رأيه على جورج حبش » .

*　　*　　*

انهى باسل كتابـة الاطروحـة في شهـر آب وتـرك الى واشنطن ، بعد اسبوع تركتُ الى الشرق حيث انتسبت لجامعة « كوينز » في كنغستون ، وبعد اسبوعين اتصل بي باسل بالتلفون واخبرني انه اتم طباعة الرسالة وقدمها للاستاذ المشرف وهو ينتظر رأيه النهائي بها وتحديد موعد الامتحان للدفاع عنها .

بعد ثلاثة اسابيع اتصل بي حانقاً متضايقاً ليقول ان الاستاذ المشرف قد اعلمه انه لايوافق على تحليله لموضوع القومية العربية ، وانه اذا كان باسل غير مستعـد لتغيير ذلك التحليل ، فانه سيهاجمه في جلسة الامتحان .

بالطبع كان لكلام الاستاذ معنـىً واحـد ، استحالـة

نجاح باسل في الامتحان . فمن المتعارف عليه ان طالب الدكتوراه يتقدم باطروحة للامتحان بعد ان يكون المشرف عليها قد وافق على كل تفاصيل البحث فيها ، ومستعدٌ ان يدافع عنها امام بقية اعضاء اللجنة الفاحصة ، اما اذا كان المشرف على الاطروحة غير مستعد للدفاع فذلك يعطي انطباعاً سيئاً للجنة الفاحصة ، ناهيكَ عن موضوع استعداده لمهاجمة الاطروحة .

سألتُ باسل ما الذي سيفعله ، فقال انه اعلم المشرف بانه لن يغير أي شيء في الاطروحة ، وانه سيتحمل المسؤولية الكاملة امام اللجنة الفاحصة ، وطلب تحديد موعد الامتحان ، وان ذلك قد تحدد بعد اسبوع ، وانهى كلامه قائلاً :

« بعد اسبوع ساكون في بيروت بدكتوراه او بدونها » .

بقيتُ في غرفتي مساء يوم الامتحان الى جانب التلفو ن حتى جاء صوت باسل :

ـ كل شيء تم على خير .

ـ ما الذي حصل ؟

ـ لاعرف . المشرف لم يتكلم أبداً ، لم يشر أي نقطة ، كل شيء تم على خير .

ـ مبروك .

ـ بعد غد سأكون في بيروت ، ماذا تريد من بيروت ؟

كل السلامات لغسان .

ـ على فكرة ، نسيتُ ان اقول لك في المرة الماضية ، لقد اجتمعتُ بصديق عائد من بيروت ، غسان غاضب عليك لتأخرك بالرد على رسالته الاخيرة .

ـ سأكتب له فوراً . مع السلامة اخوي .

- ١١ -

رسائل باسل الاولى من بيروت كانـت قلقـة تصـورُ نفسية مضطربـة ، فيهـا كان يتشـكى من الوضـع السياسي ، ومن موجة التراجع العامـة ، ومـن مظاهـر التخبط والضياع .

حاولت ان اقنع نفسي بعد قراءة هذه الرسائل انه من الممكن لباسل ترك بيروت ليعمل في احـدى الجامعـات العربية ، فكما كان يلجأ للدراسة الجامعية عندما يكون افق العمل النضالي مضطرباً ، فمن الممكن ان يلجأ الآن للتعليم الجامعي ولو لمرحلة معينة ، فرحتُ اثير الموضوع معه ، والح على عرض امكانية التعليم الجامعي ، حتى اجابني بعد رسائل عديدة بانه قدم طلباً للعمل في جامعة

الجزائـر وانـه سيتقـدم بطلـبٍ آخـر للعمـل في جامعـة الكويت .

فجـأة ودون ان يحـدث اي تغيير في الجـو السياسي العام ، اصبحت رسائل باسل صافية تصور نفسـاً نقية متفائلة ، فلقد اخذ يقضي وقته بين المقاتلين ، ويأسف انه سمح لنفسه بالتشاؤم والقلق ، ويطلب مني ان انسى تلك الرسائل ، فهي تخص مرحلة بسيطة انتهت الآن .

وفي رسائله اللاحقة لم يذكر شيئاً عن موضوع التعليم الجامعي ، ثم حدثني بان نادرة والاولاد قد حضروا الى بيروت وانهم قضوا سوية فترة من الصيف .

بعد ذلك الصيف زارني احد الاصدقاء الذي يعرفُ باسل معرفةً وثيقة وأخذ يتشكى من تصرفات باسل :

« تصوّر ! لقد قرر الآن التفرغ للعمل مع المقاومة ، الآن وبكل هذه الظروف ، تصور ! انه يعيشُ في بيروت وعائلته تعيشُ في بغداد ! هل تعرف انه منذ زواجـه قد

قضى نصف المدة بعيداً عن زوجته واولاد ؟ » .

كنتُ اعرفُ ذلك ! وعاد الصديق ليتشكى :

« . . . في الصيف الماضي وجـدتُ نادرة ولأول مرة خائفة من المستقبل . فطلبتُ منها والححتُ عليها ان تفاتح باسل بالموضوع ، اتعرف ما الذي قاله لها ؟ تصور انه ذكرها بوعدها الذي قطعته على نفسها يوم الزواج ، بان لا تضع أي عائق امام متطلبات العمل النضالي ، وعندما قالت له : « لقد قطعنا وعداً على انفسنا ، وماذا عن الاولاد ؟ » اتعرف ما الذي قاله ، لقد قال لها بان «الاولاد سيجدون من يرعاهم ، انهم في وضع افضل من وضع كثير من الاطفال الفلسطينيين » تصور هذا المنطق ؟ . . . » .

استمعتُ لحديث صديق باسل على مضض ، فسواء كنت اتفقُ معه او اختلف كنتُ اعرف ان الطريقة التي يعيش فيها باسل هي طريقة واحدة ، واذا كان منسجماً

مع نفسه الآن في بيروت فانه لن يتركها . . . . ولكن الصديق عاد يقول :

« . . . انا بصراحة لم أعد افهمه ! العمل السياسي اصبح له مرضاً مستعصياً ، لا يستطيع الشفاء منه ، لقد عملتُ معه في الحقل النضالي عندما كنا شباباً صغاراً ، اما الآن والانسان رب عائلة ويتحمل مسؤوليات بشرٍ آخرين ، الآن الوضع مختلف ، وعلى الانسان ان يراجع نفسه ويحكمُ العقل ! . . . » .

واخذ بعدها صديق باسل يُحكم العقل ويقول :

« . . . حسناً يريدُ ان يعمل في المقاومة ! زين ! هذا أشرف عمل! ولكن لماذا لايستغل مواهبه العلمية ، ويعمل في الموقع المهيأ له ، لماذا لا يعمل في مراكز البحوث ، ومراكز الاعلام ! انا اريدُ ان افهم لماذا قضى كل سنوات الدراسة الجامعية ، والدراسات العليا ،

لماذا حصل على الدكتوراه . . . ؟ ؟ » .

وقبل ان يكمل اسئلته قلت له : « لاأعرف ! » .
فسكت قليلاً ثم عاد وكأنه تذكر شيئاً فقال :

« أنـت تعـرف باسـل بشـكل جيد ، قل لي : لماذا يتصرف بهذه الطريقة ؟ قل لي ، انه يبـدو وكأن هنـاك شيئاً ناقصاً في حياته ! انه يبدو وكأنه يبحـث عن شيء ما ! ما الذي يبحثُ عنه ؟ » .

وسمعتُ صوتي يأتي من بعيد :
« انه يبحثُ عن الوطن ، على ما اعتقد » !

- ١٢ -

في ٨ تموز ١٩٧٢ اغتالت المخابرات الاسرائيلية غسان كنفاني مع ابنة اخته لميس نجم في بيروت . فاصدرت الجبهة الشعبية بياناً نعت فيه غسان عضو المكتب السياسي للجبهة ، وخرجت مظاهرة للادباء في القاهرة تحمل لافتةً كتب عليها : « انهم يقتلون الكتاب ! اليس كذلك ! » وعلى القبر هتف كمال ناصر :

« كفنوه بالعزِ من أمجاده   وادفنوه مشرَّداً في بلاده »

وفي صباح اليوم التالي تساءلت جريدة النهار في عنوانها الرئيسي : « من نسفَ غسان كنفاني ؟ » .

* * *

ارسل لي الاصدقاء في رابطة « الادب والحياة » برقيةً

لاكتب للعدد الخاص من « شؤون فلسطينية » عن غسان ، فارسلتُ مقالاً بعنوان « عالم غسان كنفاني » ، وبعد يومين ارسلتُ رسالة لباسل اقول فيها : « لقد كتبتُ كل كلمة في المقال وأنا افكرُ فيك » . فاجاب بانه قرأ المقال وانه سيحدثني عن ذلك العالم في لقائنا المقبل .

ذلك اللقاء لم يتم ، ففي ٩ نسيان ١٩٧٣ اغتالت المخابرات الاسرائيلية باسل الكبيسي في باريس ، واصدرت الجبهة الشعبية بياناً نعت فيه باسل الذي يقوم بمهمة خاصة للجبهة . تركتُ فوراً الى بيروت لاسافر منها للعراق واشهد عودة باسل لبغداد . ولكني لم استطع ذلك ، وفي بيروت سرتُ في جنازة كمال ناصر ، ابو يوسف ، وكمال عدوان ، ورددت ما قاله محمود درويش : « طوبي لشيء لم يصل ! » .

* * *

اخذتُ بالتراسـل مع نادرة ، كانـت تكتـب رسائـل طويلة تحدثني فيها عن كل مراحل حياتها مع باسـل . كانت تلك الرسائل أهم رسائل قرأتها على الاطلاق . في صيف ١٩٧٥ سافرت نادرة مع احمد ويعـرب وياسر الى اوروبا الشرقية لزيارة امهـا التـي تجـري عملية جراحية هناك ، وبعد اسابيع عادوا على متـن طائـرة تشيكية . تلك كانت الطائرة التي تحطمت قرب دمشق وقُتـل جميع ركابها !

هكذا تنتهي القصص
هكذا تبدأ

سيرة حياة ، ام سيرة ادبية - فكرية - سياسية ، ام مزيج منها ؟

كتاب فضل النقيب « هكذا تنتهي القصص ، هكذا تبدأ » ، هو ثمرة معايشة المؤلف الطويلة لرجلين عاشا حياتهما حتى لحظتها الأخيرة بقلق وبحث .

غسان كنفاني في بحثه المضني عن العلاقة بين كاتب القصة وابطالها ، ذهب الى النهاية ، كتب القصة الفلسطينية ثم انكتب بها ، مات كما يموت ابطاله ، فاجأ الموت وغاب .

وباسل الكبيسي ، الذي يمثل نموذجاً فريداً للمناضل القومي ، حذ له الواقع فذهب الى موته ، الى البحث عن صياغة واقع جديد .

كنفاني والكبيسي هما شاهدان كبيران على مرحلة وشهيدان للمرحلة .

٧ ل . ل

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب. ٥٠٥٧ - ١٣ بيروت - لبنان